

UNIVERSAL
LIBRARY

OU-234705

UNIVERSAL
LIBRARY

$$\frac{4493200}{p - 1}$$

601

مَا وَدَّاءُ الْجَارِ

او

النبوغ العربي في العالم الجديد

« عني بجمعه ونشره »

توضيحي الرافعي

(حرق الطبع محفوظ)

يطلب من

مكتبة الزهراء

بشاعة الضحالة بمصر

1952

11110

✓

11110

p - 1

60%

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد فقد سبق لنا في خاتمة كتابنا « أمين الريحاني » أننا وعدنا القراء باطلاعهم على شيء من أساليب النبوغ العربي فيما وراء البحار ووفاء بوعدنا نشرع في تقديم مختاراتنا من كتابات أساطين الأدب العربي في البلاد الأمريكية ولا يعزب عن فكر المطالع اللبيب أننا أشرنا هنالك الى سبب تقديم الاستاذ الريحاني وأفراده بكتاب خاص وهو حلولة دار الضيافة بالشرق وسبقه غيره من أدباء السوريين في الاهتمام بزيارة بلاده الشرقية ، مسقط

رأسه ومهد طفولته الذي منه درج ، للوقوف على حاهها
واكتناه مسائلها وما فاتنا الإشارة الى أننا نعرف من
أدباء السوريين في مهجرهم من هم والريحاني رضيعا لبان أو
فرسا رهان إن لم نقل بتفوقهم على الريحاني نفسه فوفاء
للأدب بحقه وتكريماً للعلم وأهله من الزائدين عن حقيقة
والمالعين لحرمة والحافظين لمودته وجب علينا أن نبادر
فنشفع كتاب « أمين الريحاني » بكتاب النبوغ العربي
ليطلع الشرقيون على مبلغ علم أحفاد الفينيقيين في مهجرهم
فيعرف مقدار نهضتهم وكيفية منازعهم فلا يبخس الناس
أشياءهم ، وحسبنا فخراً أن الريحاني وكل ما نختار له شيئاً في
كتابنا هذا ممن ترعرع في بلادنا وتغذى بغذائنا ونشق
ريح لبناننا ودليلنا أن القراء الكرام قريبوا عهد بما كتبناه
عن حياة الريحاني وكيفية نشأته ومبدأ هجرته وهو أحد
رجال تلك النهضة العالمية التي تضم بين أحنائها نبغاء
السوريين في دار هجرتهم وفي طليعتهم الأديب النابغة جبران
خليل جبران فهو أحد أعضاء الرابطة القامية وابن لبنان

الجميل ورضيع ثدى العلم فى الرياض البيروتية وقد قاسمها
النشأة والنبوغ زميلهما التحرير مخائيل نعيمة ، فبعد أن
ارتشف من معين العلم فى سوريا هاجرهما إلى البلاد الروسية
طلباً لمزيد العلم وتجويد الاطلاع ثم أم البلاد الامريكية
وهناك تجلّى نبوغه وأدبه بعد أن دخل إحدى جامعاتها
فزاع صيته وعلاقده بين جميع من يتذوق طعم الآداب
ولا يغيب عن بال الفارئ ذاك النابغة وعضو تيك الجامعة
إيليا أبى ماضى شاعر العرب الامريكى وحفيد لبنان الكبير
وريب الدراسة فى البلاد المصرية ونزيل القارة الامريكية
وصاحب أحد الدواوين الشعرية وما أنس من الاجاد لا
أنس المتأدب المهام عبد المسيح حداد صنو هؤلاء الاعضاء
الناهضين وكذلك النوانغ رشيد أيوب وأمين مشرق ووليم
كاتسفليس ونسيب عريضه أركان الادب القوى وحصنه
الحصين

وحسبنا من سيرة هؤلاء الافذاذ النابغين أنهم
أنصار الآداب العربية فى بلاد لا صلة بينها وبين آداب

الشرقيين فقد كتبوا وجودوا ونظموا فأبدعوا وترنموا
فأطربوا ونادوا فأسمعوا بيد أننا ونحن في مقام الاعتراف بالجميل
وحب اطلاع القراء على شيء من مختاراتنا من كلام أولئك
الادباء رأينا من الحسن أو مما لا مندوحة لنا عنه أن نلفت
ذهن قارئنا الفطن الى نقطة هامة وبودنا أن نجعلها نصب
عينيه وأمام خاطره حين مطالعته كتابنا هذا بل ومطالعة
كل ما نختاره من كتابات اخواننا في المهجر وهي أن هذه
الطائفة المتأدبة قد تضلعت بعد هجرتها بآداب الغربيين
نخالطت تلك الآداب نفوسهم وانطوت عليها جوانحهم
فرمما تغالوا فيها حينما يريدون مزجها بالآداب العربية فلا
يراعون في شعرهم قوانين القريض العربي ولا يتقيدون
بأوزانه وقوافيه بل يطلقون لملكاتهم الاغنة خلف الاساليب
العربية فيجىء شعرهم ونثرهم رافلا في حلله الغربية أكثر
منه اشاحا بالحبوات اليمانية والبرد النجدية والاكسية
العراقية والسمات العربية ولكل وجهة هو موليا
على أننا لو أرجعنا البصر الى تاريخ الآداب العربية لرأينا

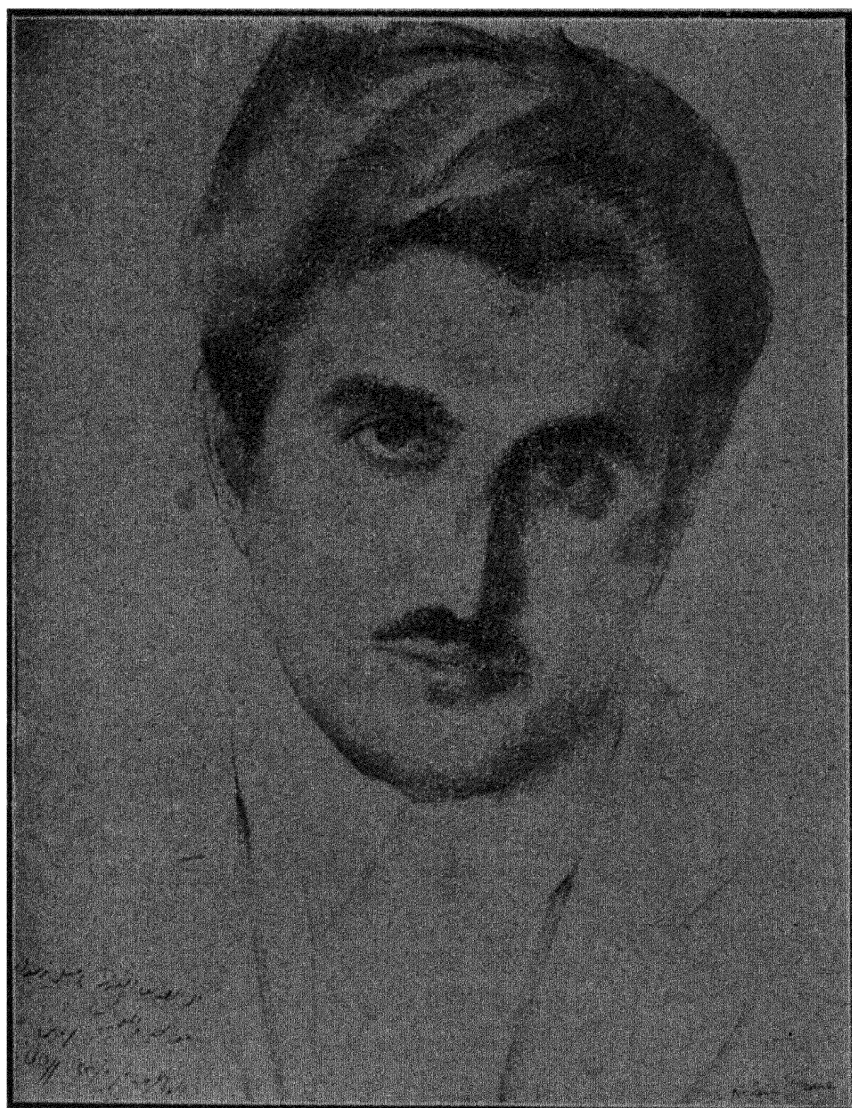
من رجالات الأدب العربي وفحول القرون الأولى من قدسرى
الى أذهانهم شىء من هذه الأساليب وقما استوطنوا الجزيرة
الاندلسية إلا أنهم أدخلوه على الأدب العربي مع مراعاة
مقومات اللغة التى ينتمون اليها ويحافظون على مشخصات
آدابها .

وقصارى القول أننا نغبط أنفسنا بنشر هذه الآثار
التي نرى فيها نفعاً كبيراً لجمهور أهل الأدب ، فثقتنا بالقراء
الكرام وحبهم للاطلاع على نافع الموضوعات وحسن
مؤازرتهم لنا باقبالهم على مطبوعاتنا حجب إلينا إجهاد النفس
فى هذا العام بطبع عدد غير قليل من الكتب الاجتماعية
والسياسة والأدبية والتاريخية .

وإننا نختم مجهودنا بهذا السفر النافع لمن يطلع عليه
وينظر فى صفحاته بامعان ثم ندع اليراع فى هذا العام طلباً
لراحة الجسم وترويح الفكر فان لبدنك عليك حقاً والسلام

القاهرة فى مايو سنة ١٩٢٢ توفيق الرفاعى





الحرية وحدها لا توحدنا

إني ممن يقولون بالطريقة البطيئة الثابتة في اصلاح
الأمم والناس ، انى ممن يرتأون ان لا خلاص للشعوب من
الجهل والجمود والحمول إلا بالهديت والتربية ، وما الثورة
عندى سوى أمثلة صغيرة فى تهذيب النفس وتثقيف
الاخلاق ، لاننا إذا تعامننا أن نشور على المستبدين والظالمين
من أسيادنا نتعلم أن نشور حتى على أنفسنا متى كنا من
هؤلاء ، الظالمين والمستبدين ، وهذا لعمري أهم من ذاك ،
ولكننا لانحسن نحن السوريين لا هذا ولا ذاك ، نحن
قوم تعددت فى بلادنا المدارس الاجنبية وكثر فينا التقليد
والادعاء . كنا بالامس فى مقدمة الشعوب بالرضوخ
للضيم والاستسلام للهوان وصرنا اليوم فى مقدمة طائفة
من الناس لا يحركون فى سبيل الامة سوى القصبه واللسان
ومتى كثر فى الامة المرشدون والناصحون المتربعون
بدست السيادة بشر تلك الامة بالهلاك ، بدل أن تنصحنى

ساعدي ، بدل أن ترشدني سر أممي ، إذ ما الفرق ياترى
بين منافق يناهض حاكماً مستبداً واص يندد باللصوص
والقتلة ؟ ما الفرق ياترى بين متعصب يقول ما أجملك وما
أسماك أيتها الحرية وبين شيطان يتغنى بمدح الملائكة ؟
ان الاثنين عندي سواء

على اننى أجد بونا شاسعاً بين عالم لا يعلم ان العلم انما
وجد لنفع الناس لا لاثارة الفتن في الناس ، ورجل عاش
جاهلاً ومات جاهلاً وكان من آل الفضل في الناس ، وإنى
والله لأفضل هذا الجاهل الصادق على ذاك العالم المنافق ،
إنى لا وثر النفس الصافية الساذجة على نفس متفهمة لا تعرف
من سبل الحياة إلا تلك المرحلة المظلمة ولا من أمانى الحياة
إلا تلك التى يحبل بها دود الارض وتتغذى من سم الافاعى
أجل يا أخى أن حملاً صالحاً أو إسكافاً حراً صادقاً
خير من الامراء والرؤساء والعلماء الذين لا يعرفون من
الحق والعدل ومن الخير والاحسان ومن الاخلاص
والفضل إلا اسماءها

إن حاجتنا إلى التهذيب اليوم لا شد منها إلى السكك الحديدية والتلفونات ، إن حاجتنا إلى العلم الصحيح الذي يهذب الانفس ويرقي العقول ويثقف الاخلاق لا شد منها إلى العلوم اللغوية والفقهية واللاهوتية والخنفسارية ، والتهذيب الصحيح ينبغي أن يعم عناصر الامة بأسرها على السواء ليأتى بفائدة تذكر الامة ، وعندى أن أشد الويل والبلاء إنما هو في بيت يعيش تحت سقفه الجاهل والعالم معاً ان وطننا بهذا البيت أيها الاخوان ، وعناصر الامة فيه كافراد تنافرت أذواقهم وأخلاقهم وتعددت صبغاتهم القومية والدينية وتباينت فيهم درجات المدارك والعلوم . فاذا ارتقى عنصر من عناصر الامة دون سواه يلجئ غالباً إلى المهاجرة إذا ظلت العناصر المنحطة واقفة في طريق ترقيه كالسد في وجه المياه ، أما الآية « ورب فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة » فالتاريخ لا يشهد على صحتها إلا مرة في الالف . لان الطبيعة لا تسمح أن تكون المعجزات فيها مبتذلة ، والغالب المبتذل هو أن الاكثرية إن كانت في

المجالس النيابية أو في الطبيعة تتغلب على الاقلية
على حكومتنا الدستورية إذاً أن تنتبه إلى هذا الامر
الخطير ان كانت تـرجو ان ترتقي الامة ونحيا ، على
حكومتنا أن تباشر تأسيس المدارس الوطنية العمومية
الاجبارية المجانية المجردة عن كل صبغة دينية ، وإن كانت
لا تباشر قريباً فلا ترجُ يا أخا الحماسة كبير خير من هذا
الاتقلاب ومن هذا الدستور ومن هذا المجلس النيابي .

أظنك تعلم أيها القارئ، العزيز أن لا غاية لي من الكتابة
والخطابة والتأليف سوى نشر المبادئ الحرة والتعاليم
السديدة في الامة ، وأن من تجرد عن المآرب السياسية
وعن الاغراض الشخصية المادية يرسل كلمته في الناس دون
أن يرأى خاطر أحد من الناس . منذ خمس سنوات عدت
إلى وطني من العالم الجديد وحتى الآن ما عرفت من الرؤساء
المدنيين والدينيين إلا من أحب أن يعرفني أو من جمعتني
به التقادير . قضيت هذه المدة كلها بعيداً عن الرئاسة
والسياسة فبان لي أن في طاقة الانسان أن يعيش سعيداً

دون أن يتزلف من السياسيين والامراء أو عمال الحكومة
والرؤساء ، نعم عشت محروماً هذا الشرف العظيم فكانت
هموى الادبية ومتاعبي السياسية أقل من هموم سواى
من الادباء .

عسى أن يعذر القراء منى هذه الكلمة الشخصية ،
فما قلتها إلا لابنى عليها قاعدة عمومية هى جديرة باعتبار كل
من زاول صناعة الكتابة وأحب أن ينفع الناس بعلمه
وأدبه ، ان التقرب من العظام وبالاخص أصحاب السيادة
منهم يفقد الكاتب مزية الحرية والاستقلال ، هذه هى
القاعدة العمومية التى قلت من أجلها كلمتى الشخصية
تكلمت عن نفسى وما كنت لأفعل ذلك فى غير هذه
الاحوال لاؤكد لكم أيها الاحوان ان الآراء التى أبدتها
والمبادئ التى أنادى بها انما هى ثمرة علم لا يعرف التفريق
والتحزب ولا يفرق بين الجنسيات والاديان .

أحب أن أردد بعد هذا التمهيد كلمتى السابقة عن
المدارس الوطنية وأردفها بكلمة ليست بأقل منها أهمية

وهى « صيحة فى واد أن ذهبت اليوم ، مع الريح تذهب
غداً بالاً وتاد » أن الأمة العثمانية لاتصير حقاً أمة واحدة
متحدة راقية إلا إذا تأسست فى البلاد المدارس الوطنية
العثمانية المجانية الاجبارية وتلقن فيها العلوم أبناء المسلمين
وأبناء الدهريين وأبناء المسيحيين وأبناء اليهود معاً بقى على
أن أقول كلمتى الاخرى ، إننا لانصير أمة راقية حرة بكل
معنى الكلمتين إلا متى صار أدباء المسيحيين وأدباء المسلمين
يتباحثون فى أى موضوع كان دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً
دون أن يشير ذلك فى شعب الملتين غبار الجهل وسموم
التعصب بل إذا كان لايحق للمسلم أن ينتقد المسيحيين
فى شؤونهم العمومية والاجتماعية ولا للمسيحي أن ينتقد
المسلمين فلسنا والله بأمة واحدة وليس وطننا بذاك الوطن
الحجيد الجامع الذى يعبد فى هيكله كل أبنائه على اختلاف
المذاهب والعناصر والجنسيات ، بل إذا كنا لا نتجرد عن
صبغتنا الدينية فى شؤوننا الوطنية والاجتماعية فحريتنا

أيها الناس كلمة مقولة ، وأخاؤنا لفظة غير معقولة ، والمساواة
عندنا قاعدة باطلة مرذولة

نعم ياسيدى ، إذا كان اخواننا المسلمون لا يساعدوننا
فى نشر التعاليم الحرة فى الأمة ، إذا كانوا لا يؤيدون قولاً
وفعلآ آراء آباء الحرية والدستور ، إذا كانوا لا يرددون صدى
أحرار المغرب وعلمائهم ومن ينحو اليوم فى الشرق نحوهم
من الأحرار الأصفياء والعلماء فعبثاً يحاول أبطال الدستور
والحرية تجديد حياة الأمة والمسلمون العنصر الأساسى
فى الأمة ، وأما انتصار الجيش فلا مجد عظيم فيه إن لم يتبعه
انتصار فى العلم والتهديب ، لأن الجيش وإن دمر معاقل
الحكومة الاستبدادية فنصره لا يزيل الجهل الذى أسست
عليه تلك الحكومة ، وما زال الجهل سائداً فى الأمة ،
سيان عندى ان كانت الحكومة فردية استبدادية أو حرة
نيابية ، إن لم تباشر الحكومة فى تدمير حصون الجهل
إذاً يعود الجهل فيدمر حصون الحكومة ، ولا يتم لها
ذلك إلا فى تأسيس المدارس العمومية الوطنية مجردة عن

كل صبغة دينية حيث أولاد المسلمين والمسيحيين واليهود
والدهريين يتلقنون كلهم العلوم على أستاذ مدني واحد وتحت
سقف واحد ومن كتاب واحد وعلى طريقة وطنية واحدة
وما هذه ببدعة أنادى بها ، فإن مكتب الصناعة في هذه
المدينة أسس على هذه الطريقة الوطنية وحبذا لو أحيت
اليوم الحكومة فيكون مثالا للمدارس العثمانية العمومية
الاجبارية ، وعبثاً نحاول توحيد العناصر المتعددة في الأمة
إذا كان التعليم لا يوحد على هذه الطريقة الوطنية
الجامعة الحرة

جلست مرة في قهوة من قهاوى البحر أتفرج على
الناس يسبحون ، تأملتهم في تلك الحالة الطبيعية وقد تجردوا
عما يميز البعض منهم عن البعض وقلت في نفسي — أين
المسلم الآن وأين اليهودي وأين الكافر وأين المسيحي ،
رأيتهم يسبحون كلهم في بحر واحد تحت سماء واحدة وهم
لا يستنكفون من أمواج تلعب حول قلوبهم كأنها قلب

واحد وتغسل أجسامهم كأنها كلها جسم واحد ، فقلت في
نفسى متى يأتى تصير عقولنا صرنة شيطنة قوية كأجسامنا
متى تصير أنفسنا كأمواج هذا البحر فلا تخضع إلا لناموس
واحد هو ناموس الله ، أو فى الاقل متى تصير متساهلة كأبداننا
فتسبح فى بحر الآداب الواحد وتحت سماء العلوم الواحدة
دون تنافر ودون شقاق :

نظرت الى البحر وأنا جالس فى تلك القهوة فرأيت
هناك المدرعات الحربية الاوربية ومنها المدرعتان
الافرنسيتان « لاقريته » و « فكتور هوغو » فكرهت
الاقامة فى بلاد لم تزل تحتاج فيها الى مثل هذه المظاهرات
الكاذبة ، وهل كنا نشاهد المدرعات الاوربية بصفة رسمية
فى بحرنا لو تأسست عندنا المدارس العمومية الوطنية منذ
ثلاثين سنة هل كانت تلتطخ المذابح تاريخنا فتلحق بنا وبوطننا
العار والشنار لو وُحِدَ منذ ثلاثين سنة التعليم فنمت فى
قلوب العثمانيين عاطفة وطنية شاملة وانتشر روح التساهل
الدينى فى الامة ؟

لا يا إخوتي ، أنا لا أحب أن أرى هذه المدرعات على
شطوط بلادنا ، أنا لا أحب أن يلتجئ أحد عناصر الامة
الى دولة أوروبية ، أنا لا أحب أن أرى « فكتور هوغو »
في بحر بيروت بل أحب أن أشاهد روح فكتور هوغو
متجلية في أرواح أبناء بيروت ، لا أحب أن أرى « الحقيقة »
على شواطئ سوريا بل أحب أن أراها في قلوب أبناء سوريا
أحب أن تحمينا المبادي السديدة لا المدافع والمدرعات ،
أحب أن يحمينا العلم الخالص من الغش والتعصب المجرد من
كل مصلحة جنسية أو دينية ، أحب أن يحمينا الاخاء العثماني
والجند العثماني والعلم العثماني



الكنيسة والجامع^(١)

لم أر بين سائر أماكن العبادة التي أعرفها (وقد حملت
نفسى المنسحقة وركبتى التعبتين الى هياكل عديدة) أفضل
من الجامع — وما أدراك ما الجامع ؟ هو المكان الذى يؤثر
على بدعوقراطيته أكثر من سواه لما فيه من شواعرها
المتنوعة فليس فى الجامع ما يداهن الاغنياء أو يكسر قلوب
الفقراء أو يرد ثقبلى الاحمال أو يغفل الورعين وليست
بشاشة الجامع بمقاعد المزدوجة ولا رغبة الناس فيه
لصدقاته . والخدمة التي تقام فيه نهار الجمعة مأخوذة من
القرآن ولهذا لا تحرف ولا تبدل بل هى دائماً لحن من
البلاغة تمسقه الاسماع فيحدث خشوعاً فى القلوب لدى
اتجاه الافكار نحو العلاء

(١) نقلا عن جريدة السائح الاميركية

الجامع كبير يسع عادة جماعة الخطباء حتى والعابدين
النوام ويبقى بعد ذلك فراغ لا يحد . فالمنبر لا يكون أبداً
قريباً من الزوايا الساحرة الشكل التي تظل جماعة المسامين
ونفوسهم وهم على اختلاف طبقاتهم يجتمعون للصلاة
تحت سقف واحد فتجد بينهم درويشاً متمتعاً وشحاذاً أعمى
وحاملاً منهوك القوى واعرانياً عليه غبار البرية البعيدة وكلهم
يؤمنون بالجامع تمام ورع وخشوع طلباً للراحة بعد العناء
أو لانغماض عيونهم لغفوة قصيرة فبعضهم يسجدون أمام
المحراب وآخرون يتمددون على الرخام البارد تحت الاروقة
حين يكون شيخ جليل أو أمير عريق في النسب راکعاً
على سجادة عجمية ثمينة ينخر ساجداً ثم ينهض قائماً في صلاته
هنا درويش يتمتم قائلاً بسم الله الرحمن الرحيم ويعبد
خرزات سبجته الى أن تصل نفسه درجة الغيبوبة

وهناك فقير يتشاءب متبعاً تشاءبه بقوله . يا الله يا كريم
وينخر مكباً على وجهه وهناك بدوي ممدد تحت الرواق كأنه
جثة هامدة وليس من ملحد أو جاهل يتعدى على أحد

المصلين أو يعكر عليهم .

الجامع ميناء يرتاح اليه الشحاذ والامير وهيكل يضم
المؤمنين وناد يقبل أولاد الله على السواء . هو حيث يعثر
المنبذ على حجر يسند اليه رأسه فتكتنفه رهبة القبة
الواسعة التي تعلوه وما يتخلل سكينته ذلك المكان الرهيب
الالكلمات — يا الله . يا كريم . التي تدفعها الصدور وقتاً فاخر
ولو أن الجامع قائم في سوق النحاسين لندر وصول
صوت اليه من الخارج يؤذى رهبة المكان وسكينته وان
النفس فيه لتخضع من هذا السكون فتدعو الجسد ويسبح
العقل في العلويات فينبه النفس بلا صنوج ولا أجراس .
بلا آلة موسيقية ولا جوق مغنين . بلا رسوم ولا تماثيل
ولكن باضواء الايمان الدائمة التي لا تطفأ تندفع النفس لتجد
سبيلا لها من خلال السكون الفائق الوصف والرهبة التي
لا تحدد . إلى العزة الالهية . إلى الاله الواحد . إلى الله .

دخلت ذات يوم جامعاً في احدى القرى لاستريح وقد
خلعت حذائي عند الباب متأملاً بهذا التقليد الحكيم لان

لذلك دواعى روحية وحسية فانه إذا كان من الدناسة أن تدخل بيت الله وحذاءك في قدميك فكم بالحري اذا لطخت سجاد الجامع الثمين باو حال الطريق وغبارها ؛ ناهيك انى خلعت حذاءى امثالاً للعادة ولانه كان مضيفاً على قدمى أوحال وأخال كثيرين يرتاحون الى هذا التقليد ويجدون به فرحاً كما شعرت

ولم يكن يدخل الجامع سوى مصلين . رجل وقور طاعن فى السن فى إحدى الزوايا وشحاذ قريب من العراء جامد فى الزاوية الاخرى أما أنا فقد جلست على حصير تحت رواق مسنداً ظهرى إلى عامود ممدداً ساقى وكنت إذ ذاك كأنى فى منزلى . أن الراحة والاسترخاء من أصول التعب الحقيقى وهما مما تجدد فى الجامع فى كل ساعة من ساعات النهار وفى كل ساعة من ساعات الليل ولقد صليت كما أحببت وخرجت مع رفيق فى الصلاة وأخوى بتسبيح الله . أما الشحاذ فكان حمالاً وقد ترك حملة عند الباب وإذ تعذر عليه رفعه أسرع الشيخ المهاب لمعونته مشمراً كميه الحريرين

عن ساعديه مبتدئاً بقوله « بسم الله » . وانحنى الحمال تحت حملة
الثقيل وقد تشنجت رقبتة بالحبل المشدود حول رأسه
ثم خطا متناقلا ولكن خطوات ثابتة بقوة الله . والتفت
الشيخ الى وقال لى مشتبهاً ! : أنت مسلم ؟ فاجبته وأنا
أشد حذائى . ولكنى أعبد الله وأكرم النبى . عندئذ دعانى
لمناولة الغذاء على مائدته فان الغرباء الذين يلتقون فى الجامع
يصبحون اخواناً .

ذكرنى هذا بزورتنى لمدينة نيويورك محجة أميركا حيث
ذهبت للصلاة فى كنيسة الاغنياء وهى بناية أنيقة صغيرة
خشبية يدل ظاهرها على أنها هيكل للعبادة المسيحية
وتاريخها يرجع إلى جيلٍ إذ ركبت تركيباً لابناء أبعد أن
أتى بأخشابها من انجلترا وبراغيها الاول أيضاً الا أن نوافذها
ذات الزجاج الملون المشوش الوضع الخالية مما يستدعى
النظر أو ما يذبه الخيلة جديدة وصحيحة ولكنها سخيفة
مطلية بطلاء يقربها من شكل العاديات أو اسطورات
التاريخ القديم وأخالها مصنوعة فى أميركا . أما اثمانها فتكال

بالذهب ككل شيء تافه في هذه البلاد العجيبة وقد لاحت
لى نافذة منها ثمن بألف ريال مهداة إلى الكنيسة من
مدام « مثرية » وأخرى أثنى منها من المستر « غنى » . أو
ليس من الغضاضة أن نذكر أسماء حقيقية في ميدان
سخاء كهذا ؟ انى لأعجب كيف أن أولئك المستوائين عن
تشويه حيطان الكنيسة الخشبية لم يتستروا استحياء ،
أقول « تشويه » عن قصد وروية فانى لا أطيق رؤية
شبابيك ملونه الزجاجات على حائط خشبى رقيق عليه شارة
هندسية خارجية تشود جماله وتمنع انعكاس نور الشمس عليه
إلا ان الاحسان لا يعيش فى الظل بل ينفخ بيقوه على
السطوح فى رائعة النهار فيها ، أيها البوق النحاسى انى لم
أسمع صدى رناتك فى تلك الجوامع المملوءة هواء نقياً
فى ذلك الشرق الهادئ

ومما يستحق الملاحظة أيضاً تلك المقاعد الكنائسية
المربعة الزوايا التى تستطيع أن تضع مكانها عدة كراسى بين
ذات مساند وهرازة وهى مركبة بطريقة تجعل أربابها

يجلسون وجها لوجه كأنهم جالسون في بهو . أولئك هم
أغنياء أميركا الذين يتربعون في أبهاتهم الكنائسية ، ولماذا
يأتري يجزأ مكان العبادة إلى مقاطعات ؟ ولم لا تكون
الكنيسة كالجامع الفسيخ المطوق للهواء النقي لا ضرائب
عليه ، تؤمه وتبقي ما تشاء من الوقت حينما تشاء ؟

إن المقاعد الكنائسية تسبب صلاة طويلة وضريبة
مرسومة وضغطاً على حرية الفرد ولقد ترغب في أن تذهب
الى الكنيسة لقضاء خمس دقائق لتنبه روحاني فتقضى
خمس ساعات اذ تحصر في المقعد وغالباً اما تعكر على الآخرين
أو يعكر عليك الآخرون ما يجول في مخيلتك .

ولقد علمت أن مقاعد كنيسة نيويورك لا تباع ولا
تؤجر ولا تعرض للمصلين ولكنها تقتني اقتناء فكانها
ملك اصحاب أو عرش لرب يتحول بالارث من أب الى
ابنه فلا يستطيع الغريب أن يدخل بيت الله للصلاة إلا
إذا أراد أن يقف عند الباب بفارغ صبره وان حصوله على

خلاص لنفسه لاسهل من حصوله على مقعد إيريج ركبتيه
من عناء الوقوف

أما أنا فقد جلست على مقعد مضيئ وأخال مضيئ
حصل عليه بالقوة لان جلدة كتاب الترانيم تحمل اسما غير
اسمه وهو اسم إحدى العائلات العريقة المتسلسلة من
عائلات انكلترا القديمة وقد طرأت على هذا المقعد تقلبات
عديدة بتنقله من يد صاحب الى آخر حتى لم يبق من فراغ
قليل على جلدة كتاب الترانيم لوضع اسم جديد

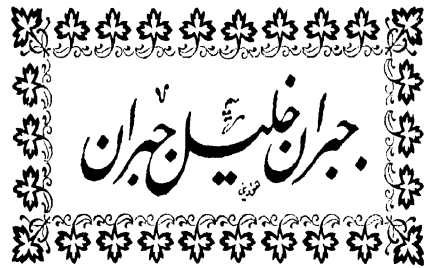
يقاسى الاغنياء قليلا من اجحاف يسببه غناهم . فعنهم
قال مؤسس الديانة المسيحية نفسه أشياء مؤلمة وقد حرم
عليهم دخول السماء بمثل ضربه فوا الحالة هذه لا يجب أن
يعدموا الحق بان يجعلوا لانفسهم سماوات أخرى على
الارض فى كنيسة صغيرة حيث يستطيعون أن يناجوا
ربهم دون مقاوم أو معكر . ها هنا أولئك الاغنياء
المساكين يحبسون أنفسهم رذحا قصيرا ولا حق لاحد
من سائر سكان الغرباء أن يتطفل عليهم بدقائقهم المكرسة

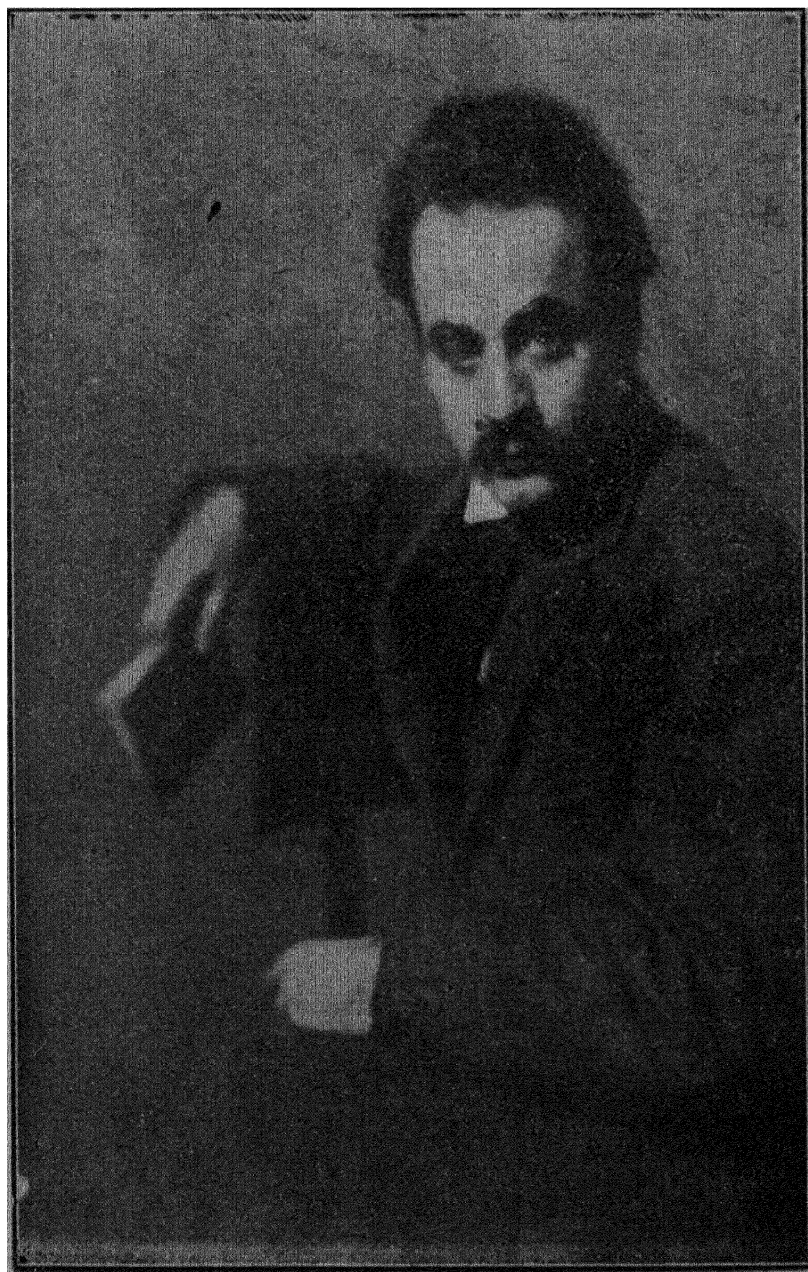
للعبادة فهم يستوون جالسين فى متكأتهم برزانة وتأنق
يرغنون النشيد المائة والسادس والسبعين أو المزمور الواحد
والخمين خاشعين يستوعبون الايمان بكل مسامعهم
وشاعرين بسلام داخلهم وسلام مع العالم ومع الله .

وهذه حال الواعظ الذى لا يلقى عليهم من المنبر شيئاً
من أمثال الناصرى — عن الغنى والعازر — أو عن الجمل
وثقب الابرّة — أن هذا المحترم يراعى شعوريته وأميالهم
ليغفر لى الله ما ذكرته هنا فقد أتيت الكنيسة لاصلى
لا لا غلط . وأما أولئك الذين قد يكونون المسببين لى هذا
التغيير العقلى السيء من قريب وبعيد وحاضر أو غائب
فانا أبتهل الى الله أن يغفر لهم ويرحمهم .

انتهت الصلاة ولكن القسم الجوهري منها لم ينته
بل سيقام فى الزقاق الضيق أمام الكنيسة حيث شردمة
من البوليس يهتمون بحركة العربات الذاهبة والآتية
حينذاك يتقدم قطار سيارات متعددة الالوان والاشكال متألقة
يحف بها الحشم وعلى دفتها سائفون بهيئاتهم المتشاحخة وتظهر

العربات المتلاثلة تجرها الجياد المطهات فيثب منها الغلمان
المرتدون أثوابهم الخاصة ليفتحوا أو يقفلوا أبواب العربات
غوغاء غرور . . . ضجيج تصلف . . . معرض
مدهش لاظهار أبهة ونخفة فتعال معي يا أخي المسيحي —
تعال معي إلى الجامع





وعظمتنى نفسى

وعظمتنى نفسى فعلمتنى حب ما يعقته الناس ومصافاة
من يضاعنونه وأبانت لى ان الحب ليس بميزة فى المحب بل
فى المحبوب ، وقبل ان تعظنى نفسى كان الحب بى خيطاً
دقيقاً مشدوداً بين وتدين متقاربين ، أما الآن فقد تحول
الى هالة أولها آخرها وآخرها أولها تحيط بكل كائن وتتوسع
بيضاء لتضم كل ما سيكون



وعظمتنى نفسى فعلمتنى ان أرى الجمال المحجوب بالشكل
واللون والبشرة ، وان أحقق متبصراً بما يعده الناس
شناعة حتى يبدو لى حسناً . وقبل ان تعظنى نفسى كنت
أرى الجمال شعلات مر تعشة بين أعمدة من الدخان ، أما

الآن فقد تبدد الدخان واضمحل فلم أعد أرى سوى
ما يشتعل

وعظمتى نفسى فعلمتنى الاصغاء الى الاصوات التى لا
تولدها الألسنة ولا تضج بها الحناجر . وقبل أن تعظى
نفسى كنت كليل المسامع مريضها ، لا أعى سوى الجلبة
والصياح أما الآن فقد صرت أتوجس بالسكينة فاسمع
أجواقها منشدة أغانى الدهور ، مرتلة تسايح الفضاء ،
معلنة أسرار الغيب



وعظمتى نفسى فعلمتنى أن أشرب مما لا يعصر ولا
يسكب بكؤوس لا ترفع بالأيدي ولا تلمس بالشفاه . وقبل
أن تعظى نفسى كان عطشى شرارة ضئيلة فى رابية من
رماد أخذها بغبة من الغدير أو برشقة من جرن المعصرة .
أما الآن فقد صار شوقي كأسى ، وغلتى شرابى ، ووحدتى

نشوتى ، وأنا لا ولن أرتوى . ولكن فى هذه الحرقه التى
لا تطفى مسرة لا تزول



وعظتنى نفسى فعلمتنى لمس ما لم يتجسد ولم يتجمد ولم
يتبلور ، وأفهمتنى أن المحسوس نصف المعقول ، وإن ما
تقبض عليه بعض ما نرغب فيه . وقبل ان تعظنى نفسى
كنت أكتفى بالحر إن كنت بارداً ، وبالبارد إن كنت
حاراً ، وبأحدهما ان كنت فاتراً . أما الآن فقد انتشرت
ملامسى المتكشمة وانقلبت ضباباً دقيقاً يحترق كل ما ظهر
من الوجود ليمتزج بما خفى منه



وعظتنى نفسى فعلمتنى استنشاق ما لا تبثه الرياحين
ولا تنشره الحجامر . وقبل ان تعظنى نفسى كنت ان
اشتهيت عطراً طلبته من البساتين أو من القوارير والمباخر .
أما الآن فقد صرت أشبع ما لا يحرق ولا يهرق ، وأملأ
صدرى من أنفاس زكية لم تمر بجنة من جنات هذا العالم

ولم تحملها نسمة من نسيمات هذا الفضاء،

وعظمتنى نفسى فعلمتني أن أقول « لبيك » عندما يناديني
المجهول والخطير. وقبل أن تعظني نفسى كنت لا أنهض
إلا لصوت مناد عرفته ، ولا أسير إلا على سبل خبرتها
فأستهونها . أما الآن فقد أصبح المعلوم مطية أركبها نحو
المجهول ، والسبل ساماً أتسلق درجاته لا بلغ الخطر



وعظمتنى نفسى فعلمتني أن لا أقيس الزمن بقولى « كان
بالأمس وسيكون غداً » وقبل ان تعظني نفسى كنت
أتوهم الماضي عهداً لا يرد والآتى عصراً ان أصل اليه . أما
الآن فقد عرفت أن فى الهنية الحاضرة كل الزمن بكل ما
فى الزمن مما يرجى وينجز ويحقق

وعظمتنى نفسى فعلمتني أن لا أحد المكان بقولى « هنا
وهناك وهناك » وقبل ان تعظني نفسى كنت إذا ما صرت
فى موضع فى الارض ظننتنى بعيداً عن كل موضع آخر .
أما الآن فقد علمت أن مكاناً أحل فيه هو كل مكان .

وان فسحة أشغلها هي كل المسافات



وعظمتى نفسى فعلمتني أن أسهر وسكان الحى راقدون ،
وأن أنام وهم منتبهون . وقبل أن تعظنى نفسى كنت لا
أرى أحلامهم فى هجعتى ولا يرصدون أحلامهم فى غفلتهم
أما الآن فلا أصبح مررفراً فى منامى إلا وهم يرقبونى ولا
يطيرون فى أحلامهم إلا وفرحت بالاعتاقهم



وعظمتى نفسى فعلمتني أن لا أطرب لمديح ولا أجزع
لمذمة . وقبل ان تعظنى نفسى كنت أظل مرتاباً فى قيمة
أعمالى وقدرها حتى تبعث اليها الايام بمن يقرظها أو يهجوها
أما الآن فقد عرفت ان الاشجار تزهر فى الربيع وتثمر فى
الصيف ولا مطمع لها بالشاء ، وتنثر أوراقها فى الخريف
وتتعرى فى الشتاء ولا نخشى الملامة



وعظمتنى نفسى فعلمتنى واثبتت لى أننى لست بارفع
 من الصعاليك ولا أذنى من الجبابرة وقبل أن تعظنى نفسى
 كنت أحسب الناس رجلين رجلاً ضعيفاً أرق له أو
 أزدرى به ورجلاً قوياً أتبعه أو أتمرده عليه . أما الآن فقد
 علمت أننى كونت فرداً مما كون البشر منه جماعة ،
 فعناصرى عناصرهم ، وطويتى طويتهم ، ومنازعى منازعهم ،
 ومحجتى محجتهم ؟ فان أذنبوا فانا المذنب ، وان أحسنوا عملاً
 فاخرت بعملهم ، وان نهضوا نهضت وإياهم ، وان تقاعدوا
 تقاعدت معهم



وعظمتنى نفسى فعلمتنى وأفهمتنى أن السراج الذى احملة
 ليس لى ، والاغنية التى أنشدها لم تتكون فى أحشائى ، فانا
 وان سرت بالنور لست بالنور ، وأنا وان كنت عوداً
 مشدود الاوتار فلست بالعواد



وعظمتني نفسي يا أخى وعلمتني . ولقد وعظمتك نفسك
وعامتك . فانت وأنا متشابهان متضارعان ، وما الفرق
بيننا سوى أننى أتكلم عما بى وفى كلامى شىء من اللجاجة ،
وأنت تكلم ما بك وفى تكلمك شىء من الفضيلة



بين ليل وصباح

اسكت يا قلبي ، فالفضاء لا يسمعك
اسكت فالأثير المثقل بالنواح والعويل لن يحمل
أغانيك وأناشيدك .

اسكت فاشباح الليل لا تحفل بهمس أسرارك
ومواكب الظلام لا تقف أمام أحلامك .

اسكت يا قلبي ، اسكت حتى الصباح ، فمن يترقب
الصباح صابراً يلاقى الصباح قوياً ، من يهوى النور
فالنور يهواه .

اسكت يا قلبي ، واسمعي متكلما



في الحلم رأيت شحروراً يغرد فوق فوهة بركان نائر
ورأيت زنبقة ترفع رأسها فوق الثلوج
ورأيت حورية عارية ترقص بين القبور
ورأيت طفلاً يلعب بالجماجم وهو يضحك

رأيت جميع هذه الصور في الحلم ولما استيقظت
ونظرت حولي رأيت البركان هائجاً ولكني لم أسمع الشحرور
مغرداً ولا رأيته مرفرفاً

ورأيت الفضاء ينثر الثلوج على الحقول والودية
سائراً بكفانه البيضاء أجسام الزنابق الهامدة

ورأيت القبور صفوفاً منتصبة أمام سكينه الدهور
وليس بينها من يتمايل راقصاً ولا من يجثو مصلياً

ورأيت راوية من الجماجم وليس هناك من ضاحك
سوى الريح

في اليقظة رأيت الحزن والاسى فاين ذهبت أفراح
الحلم ومسرانه؟

أنى تواترت بهجة المنام وكيف اضطجعت رسومه؟
وكيف تتجلد النفس حتى يعيد النوم أشباح أمانها
وأمانها؟

اصغ يا قلبي واسمعي متكلماً

كانت نفسى بالأمس شجرة قوية مسنة تمتد عروقها
الى أعماق الارض وتتعالى غصونها نحو الانهاية
ولقد أزهرت نفسى فى الربيع وأثمرت فى الصيف ولما
جاء الخريف جمعت أثمارها فى أطباق من الفضة ووضعتها
على قارعة الطريق . فكان العابرون يتناولون منها ويأكلون
ثم يسرون فى سبيلهم .

ولما انقضى الخريف وتحولت تهاليله الى الندب والولولة
نظرت فلم أر فى أطباق سوى ثمرة واحدة أبقاها الناس لى
فتناولتها وأكلت فألفيتها مرة كالعقم ، حامضة كالحرصم .
فقلت لنفسى : « ويحى لقد وضعت فى أفواه الناس لعنة ،
وفى أجوافهم عدااء . فماذا ترى فعلت يانفسى بالحلاوة التى
امتصتها عروقك من أحشاء الارض ، وبالاريج الذى
تشربته قضبانك من نور الشمس » ؟

بعد ذلك اقتلعت شجرة نفسى القوية المسنة
اقتلعها بعروقها من التربة التى نمت فيها وترعرعت .

اقتلعتها من ماضيها ونزعت عنها ذكرى ألف ربيع
وألف خريف

وعدت فزرعت شجرة نفسى فى مكان آخر
زرعتها فى حقل بعيد عن سبل الزمن . وكنت أسهر
بجانها قائلاً أن السهر يدنينا من النجوم . وكنت أسقيها
بدى ودموعى قائلاً أن فى الدم نكهة . وفى الدموع حلاوة
ولما عاد الربيع أزهرت نفسى ثانية

وفى الصيف نمت نفسى . ولما جاء الخريف جمعت
أثمارها الناضجة باطباق من الذهب . ووضعتها على ملقى
السبل . فر الناس أفرادا وجماعات ولكن لم يجد أحد يده
ليتناول منها

فأخذت إذ ذاك ثمرة وأكلت ، فوجدتها حلوة كالشهد ،
لذيذة كالكوثر ، طيبة كالخمر البابلية ، كانفاس الياسمين ،
فصرخت قائلاً : « ان الناس لا يريدون البركة فى أفواههم
ولا الحق فى أجوافهم لان البركة ابنة الدموع ، والحق
ابن الدماء »

ثم عدت وجلست في ظل نفسي المنفردة في حقل بعيد
عن سبيل الزمن



اسكت يا قلبي حتى الصباح
اسكت ، فالفضاء قد أخمته رائحة الاشلاء ، فلن
يتشرب أنفاسك

اصغ يا قلبي واسمعي متكلم
كانت بالامس فكرتي سفينة تتقلب بين أمواج
البحار وتنتقل مع الالهواء من شاطئ ، إلى شاطئ ،
ولقد كانت سفينة فكرتي خالية الا من سبعة أكواب
طاخة مختلفة بالوان مختلفة تشابه ألوان قوس القزح بنضارتها
وجاء زمن ملأت فيه التنقل على وجه البحار فقلت
سأعود بسفينة فكرتي الفارغة الى ميناء البلد الذي
ولدت فيه

ثم أخذت أطلي جوانب سفينتي بألوان صفراء
كشمس المغيب ، وخضراء كقالب الربيع ، وزرقاء ككبد

السماء ، وحمراء كذوب الشقيق ، وارسم على شراعها ودقتها
رسوماً غريبة تجذب العين وتبهج البصيرة ، ولما انتهيت من
عملي وقد ظهرت سفينة فكرتي كرويانبي تطوف بين اللانهايتين
البحر والسماء ، دخلت ميناء بلدى فخرج الناس لملاقاتي
بالتهليل والتعظيم وأدخلوني المدينة ضارين الدفوف ،
نانحين الزمور

فعلوا ذلك لان خارج سفينتى كان مزخرفاً بهجا
ولم يدخل أحد جوف سفينة فكرتي
ولم يسأل أحد ماذا جلبت فيها من وراء البحار
ولم يدر أحد أنى عدت بها فارغة الى الميناء
عند ذلك قلت فى سرى : لقد ضللت الناس . وبسبعة
أكواب من الالوان قد كذبت على باصرتهم وبصائرهم «

*
* *

وبعد عام ركبت سفينة فكرتي وأبحرت ثانية
سرت الى جزر الشرق فجمعت منها المر واللبان
والند والصندل وأدخلتها الى سفينتى

وإلى جزر الجنوب فجلبت منها التبر والعاج والياقوت
والزمرد وجميع الحجارة الكريمة

وإلى جزر الشمال فعدت منها بالخز والوشى والبرفير
وإلى جزر الجنوب فحملت منها الدروع المزردة
والسيوف المشرفية وسائر أنواع الأسلحة

ملأت سفينة فكرتني بنفائس الارض وغرائبها،
وعدت إلى ميناء بلدى قائلا « سوف يعجبنى قومي . ولكن
عن جدارة وسيدخلونى المدينة منشدين مزمرين ، ولكن
عن استحقاق »

ولكن لما بلغت الميناء لم يخرج أحد للاقائي ، ودخلت
شوارع بلدى فلم يلتفت إلى أحد

ووقفت فى ساحتها معلنا للناس ما جلبت لهم من ثمار
الارض وطرائفها فكانوا ينظرون إلى والضحك ملء أفواههم
والسخرية على وجوههم ثم يتحولون عنى

فعدت إلى الميناء كئيباً مستغرباً ، ولكننى ما لمحت
سفينتى حتى فطنت لا مراكنت مشغولا عنه بمنازع أسفارى

ورغائبها . فهتفت قائلاً ، إن أمواج البحر قد محت الطلاء ،
من جوانب سفينتي فبان كهيكل من عظام ، وعفت الارياح
والانواء وحرارة الشمس الرسوم عن شراعها فظهرت
كأثواب رمادية بالية »

لقد جمعت طرائف الارض ونفائسها في تابوت يعوم على
وجه الماء وعدت إلى قومي فنبذوني لان عيونهم لا ترى
سوى المظاهر الخارجية

في تلك الساعة تركت سفينة فكرتي وذهبت إلى مدينة
الاموات وجلست بين القبور المكساة مفكراً بأسرارها



اسكت يا قلبي حتى الصباح ، اسكت فالعاصفة
الموجاء تسخر بهمس أعماقك وكهوف الوادي لن ترجع
بصداها رنات أوتارك

اسكت يا قلبي حتى الصباح فمن يترقب الصباح متجلداً
يعاذقه الصباح مشتاقاً

ها قد طلع الفجر يا قلبي فتكلم ان كنت تستطيع الكلام .

هو ذا موكب الصباح يا قلبي فهل أبقى سكوت الليل
في أعماقك أغنية تلاقى بها الصباح ؟
هو ذا أسراب الحمام والشحارير تتطاير متنقلة في
أطراف الوادي ، فهل أبقى هول الليل في جناحيك صلابة
لتطير معها ؟

هو ذا الرعيان يسرون أمام قطعانهم من الحظائر
والمرابض فهل أبقيت لك أشباح الليل عزماً لتسير وراءها
إلى المروج الخضراء ؟

هو ذا الفتيان والصبايا يمشون الهويناء نحو الكروم ،
فهل أنهضت ومشيت معهم ؟

قم يا قلبي ، قم وسر مع الفجر فالليل قد مضى ، ومخاوف
الليل قد اضمحلت مع احلامه السوداء .

قم يا قلبي وارفع صوتك مترنماً فمن لا يشارك الصبح
باغانيه كان من أبناء الظلام

البنفسجة الطموحة

كانت في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الشايات ، طيبة
العرف تعيش مقتنعة بين أطرافها وتمايل فرحة بين قامات
الاعشاب .

ففي صباح ، وقد تكلمت بقطر الندى ، رفعت رأسها
ونظرت حوالها فرأت وردة تتناول نحو العلاء بقامة
هيفاء ورأس يتسامى متشاخاً كأنه شعلة من النار فوق
مسرجة من الزمرد .

ففتحت البنفسجة ثغرها الازرق وقالت مشهدة —
ما أقل حظى بين الرياحين ، وما أوضع مقامى بين الازهار ،
فقد ابتدعتنى الطبيعة صغيرة ، حقيرة أعيش ملتصقة بأديم
الارض ولا أستطيع ان ارفع قامتى نحو ازرقاق السماء أو
أحول وجهى نحو الشمس مثما تفعل الورود »

وسمعت الوردة ما قالت جارتها البنفسجة فاهتزت
صاحكه ثم قالت — ما أغباك بين الازهار ، فانت فى نعمة

تجهلين قيمتها . فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف
والجمال ما لم تهبه لكثير من الرياحين ، نخل عنك هذه
الميول العوجاء والاماني الشريرة وكوني قنوعة بما قسم لك
واعلمي ان من خفض جناحه يرفع قدره ، وان من طلب
المزيد وقع في النقصان »

فأجابت البنفسجة قائلة

— أنت تعزيني أيتها الوردة ، لانك حاصلة على
ما أتمناه وتغمرين حقارتى بالحكم ، لانك عظيمة . وما أمر
مواعظ السعداء في قلوب التعساء . وما أقسى القوي ا-ا
وقف خطيباً بين الضعفاء ! »

وسمعت الطبيعة مادار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت
مستغربة ثم رفعت صوتها قائلة

— « ماذا جرى لك يا ابنتي البنفسجة ؟ فقد عرفتك
لطيفة بتواضعك عذبة بصغرك ، شريفة بمسكنتك ، فهل
استهوتك المطاعم القبيحة ، أم سلبت عقلك العظمة الفارغة ؟ »

فأجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف .

— « أيتها الام العظيمة بجبروتها الهائلة بخنائها ،

اضرع اليك بكل ما في قلبي من التوسل : وما في روحي

من الرجاء أن تجيبي طلبي وتجعليني وردة ولو يوماً واحداً »

فقلت الطبيعة — « أنت لاتدرين ما تطلبين ولا

تعلمين ما وراء الظعمة الظاهرة من البلايا الخفية فاذا رفعت

قامتك وأبدلت صورتك وجعلتك وردة تندمين حين

لا ينفع الندم »

فقلت البنفسجة — « حولي كياني البنفسجي إلى

وردة مديدة القامة ، مروة الرأس • ومهما يحل بي بعد

ذلك يكن صنع رغائبي ومطامعي »

فقلت الطبيعة — « لقد أجبت طلبك أيتها البنفسجة

الجاهلة المتردة ولكن اذا داهمتك المصائب والمصاعب

فلتكن شكواك من نفسك »

ومدت الطبيعة أصابعها الخفية السحرية ولامت

عروق البنفسجة فتحوّلت بلحظة الى وردة زاهية متعالية
فوق الازهار والرياحين .

ولما جاء عصر ذلك النهار تلبّد الفضاء بغيوم سوداء
مبطّنة بالاعصار ثم هاجت سواكن الوجود فأبرقت
وأرعدت وأخذت تحارب تلك الحدايق الانصباب واقتلعت
الازهار المتشاخّة ولم تبق الا على الرياحين الصغيرة التي
تلتصق بالارض أو تختبئ بين الصخور .

أما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العناصر
ما لم تقاسه حديقة أخرى .

فلم تمر العاصفة وتنقشع الغيوم حتى أصبحت أزهارها
هباء منشوراً ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى
طائفة البنفسج المختبئة بجدران الحديقة .

ورفعت إحدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حل
بأزهار الحديقة وأشجارها فابتسمت فرحاً ثم نادى
رفيقاتها قائلة

— « الا فانظرن ما فعلته العاصفة بالرياحين المتشاحنة
تيها واعجابا »

وقالت بنفسجة أخرى — « نحن نلتصق بالتراب ،
ولكننا نسلم من غضب العواصف والانواء »

وقالت بنفسجة ثالثة — « نحن حقيرات الاجسام غير
ان الزوابع لا تستطيع التغلب علينا »

ونظرت اذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت على
مقربة منها الوردة التي كانت بالامس بنفسجة وقد اقتلعتها
العاصفة وبعثت أوراقها الرياح وألقها على الاعشاب المبللة
فبان كقبتيل أرداه العدو بسهم .

فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومدت أوراقها ونادت
رفيقاتها قائلة — « تأملن وانظرن يا بناتي . أنظرن الى
البنفسجة التي غرتها المطامع فتحولت الى وردة لتشامخ
ساعة ثم هبطت الى الحضيض . ليكون هذا المشهد أمثلة
لكن »

عندئذ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها
الخائرة وبصوت يتقطع قالت
— « ألا فاسمعن أيتها الجاهلات المقتنعات ، الخائفات
من العواصف والاعصار . لقد كنت بالامس مثلـكن
أجلس بين أوراق الخضراء مكتفية بما قسم لى ، وقد كان
الاكتفاء حاجزا منيعاً يفصلنى عن زوابع الحياة وأهوائها
ويجعل كياني محدودا بما فيه السلامة . متناهيـا بما يساوره
من الراحة والطمأنينة . ولقد كان بامكانى أن أعيش نظيركن
ملتصقة بالتراب حتى يغمرنى الشتاء بثلوجه وأذهب كمن
ذهب قبلى الى سكينـة الموت والعدم قبل أن أعرف من
أسرار الوجود ومخباته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ
وجد البنفسج على سطح الارض . لقد كان بامكانى الانصراف
عن المطامع والزهد فى الامور التى تعملو طبيعتها عن طبيعتى
ولكن أصغيت فى سكينـة الليل فسمعت العالم الاعلى يقول
لهذا العالم « انما القصد من الوجود الطموح الى ما وراء
الوجود » فتمردت نفسى على نفسى وهام وجدانى بمقام

يعلمو عن وجدانى . وما زلت أتمرد على ذاتى وأشوق الى
ما ليس لى حتى أنقلب تمردى الى قوة فعالة واستحال شوقى
الى ارادة مبدعة فطابت الى الطبيعة — وما الطبيعة سوى
مظاهر خارجية لاحلامنا الخفية — ان تحولانى الى وردة
ففعلت ، وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها باصابع
الميل والتشويق

وسكتت الوردة هنيهة ثم زادت بلهجة مفعمة
بالفخر والتفوق .

— أى لقد عشت ساعة كوردة . لقد عشت ساعة
كمالكة . لقد نظرت الى السكون من وراء عيون الورود .
وسمعت همس الاثير بأذان الورود . ولمست ثنايا النور
بلوراق الورود . فهل بينكن من تستطيع أن تدعى شرفى ؟ »
ثم لوت عنقها ، وبصوت يكاد أن يكون لهاثا قالت
— « أنا أموت الآن . أموت وفى نفسى ما لم تكنه
نفس بنفسجة من قبلى . أموت وأنا عالمة بما وراء المحيط
المحدود الذى ولدت فيه . وهذا هو القصد من الحياة .

هذا هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الايام والليالى «
وأطبقت الوردة أوراقها وارتعشت قليلا ثم ماتت
وعلى وجهها ابتسامة علوية — ابتسامة من حققت الحياة
أمانيه — ابتسامة النصر والتغلب — ابتسامة الله .



حياة الحب

- الربيع -

هلمى يا محبوبتى نمش بين الطلول ، فقد ذابت الثلوج
وهبت الحياة من مراقدها وتمايلت فى الاودية والمنحدرات .
سيرى معى لنتتبع آثار أقدام الربيع فى الحقل البعيد . تعال
لنصعد الى أعلى الربى ونأمل فى عوجات اخضرار السهول
حولها .

ها قد نشر فجر الربيع ثوباً طواه ليل الشتاء فاكنت
به أشجار الخوخ والتفاح فظهرت كالعرائس فى ليلة القدر ،
واستيقظت الكروم وتعانقت قضبانها كعاشر العشاق ،
وجرت الجداول راقصة بين الصخور مرودة أغنية الفرح ،
وانبثقت الازهار من قلب الطبيعة انبثاق الزبد من البحر .
تعال لنشرب بقايا دموع المطر من كؤوس النرجس
ونملاً نفسينا بأغاني العصافير المسرودة ونغتئم استنشاق
عطر النسيمات .

لنجلس بقرب تلك الصخرة حيث يختبيء البنفسج
ونتبادل قبلات المحبة .

— الصيف —

هيا بنا الى الحقل يا حبيبتي فقد جاءت أيام الحصاد
وبلغ الزرع مبلغه وأنضجته حرارة محبة الشمس للطبيعة
تعال قبل أن تسبقنا الطيور فتستغل أتعابنا ، وجماعة النمل
فتأخذ أرضنا . هلمى نجنى ثمار الارض مثلما جنت النفس
حبوب السعادة من بذور الوفاء التى زرعتها المحبة فى أعماق
قلبيننا ، ونملأ المخازن من نتاج العناصر كما ملأت الحياة
اهراء عواطفنا .

هلمى يا رفيقتى نفترش الاعشاب ونلتحف السماء ونوسد
رأسينا بضغث من القش الناعم فترتاح من عمل النهار ونسمع
مسامرة غدير الوادى .

— الخريف —

لنذهب الى الكرمه يا محبوبنى ونعصر العنب ونوعيه
فى الاجران مثلما توعى النفس حكمة الاجيال ونجمع الاثمار

اليابسة ونستقطر الازهار وتستعيض عن العين بالاثـر
انـرجع نحو المساكن فقد اصـفرت أوراق الاشجار
ونـثرها الهواء كأنه يريد أن يكفـف بها أزهار اقضت لوعة
عند ما ودعها الصيف . تعالٍ فقد رحلت الطيور نحو
الساحل وحملت معها أنس الرياض وخلفت الوحشة للياسمين
والسيسان فبكى باقى الدموع على أديم التراب .

انـرجع . فالجدول قد وقفت عن مسيرها ، والعيون
نشفت دموع قرحها . والطلول خلعت باهى أثوابها . تعال
يا محبوبتى . فالطبيعة قد راودها النعاس فأمست تودع اليقظة
بأغنية نهاوندية مؤثرة .

— الشتاء —

اقتربنى يا شريكة حياتى ، اقتربنى منى ولا تدعى أنفاس
الثلوج تفصل جسمينا . اجلسى بجانبى امام هذا الموقد ،
فالنار فاكهة الشتاء الشهية . حدثينى بما آتى الاجيال ،
فآذانى قد تعبت من تأوه الارياح وندب العناصر . او صدى
الابواب والنوافذ ، فرأى وجه الجو الغضوب يحزن نفسى

والنظر الى المدينة الجالسة كالشكلي تحت أطباق الشلوج
يدى قلبي . . اسق السراج زيتاً ، يارفيقة عمرى ، فقد
أوشك أن ينطفيء ، وضعيه بالقرب منك لارى ما كتبتة
الليالى على وجهك . . . هات جرة الخمر لنشرب ونذكر
أيام العصر .

اقتربى ! — اقتربى منى يا حبيبة نفسى فقد خمدت النار
وكاد الرماد يخفيها . . ضم من فقد انطفأ السراج وتغلبت
عليه الظلمة . . ها قد بليت أعيننا خمرة السنين . .
ارمقيني بعين حكماها النعاس . . عانقيني قبل أن يعانقنا
السكرى . . . قبليني فالثلج قد تغلب على كل شئ ، الا
قبلتك . . آه يا حبيبتي ما أعمق بحر النوم . آه ما أبعد
الصباح . . في هذا العالم

في مدينة الاموات

تملصت بالامس من غوغاء المدينة وخرجت أمشي
في الحقول الساكنة حتى بلغت أكمة عالية ألبستها الطبيعة
أجمل حلاها . فوقفت وقد بانت المدينة بكل ما فيها من
البنائات الشاهقة والقصور الفخمة تحت غيمة كثيفة من
دخان المعامل .

جلست أتأمل عن بعد في أعمال الانسان فوجدت
أكثرها عناء ، فحاولت في قلبي الأفتكر بما صنعه ابن آدم
وحولت عيني نحو الحقل كرسي مجد الله فرأيت في وسطه
مقبرة ظهرت فيها الاجداث الرخامية المحاطة بأشجار السرو
هناك بين مدينة الاحياء ومدينة الاموات جلست
أفكر — أفكر في كيفية العراق المستمر والحركة الدائمة
في هذه وفي السكينة السائدة والهدوء المستقر في تلك .
من الجهة الواحدة آمال وقنوط ، ومحبة وبغضة ، وغنى وفقر ،
واعتقاد وجحود ، ومن الاخرى تراب في تراب تقلب

الطبيعة بطنه ظاهراً وتبدع منه نباتاً ثم حيواناً وكل ذلك يتم فى سكينة الليل .

بيناً أنا مستسلم لعوامل هذه التأملات استلقت ناظرى جمع غفير يسير الهويناء تتقدمه الموسيقى وتملأ الجو ألحانا محزنة . موكب جمع بين الفخامة والعظمة وآف بين أشكال الناس . جنازة غنى قوى . رفات ميت تتبعها الاحياء وهم يكون ويولولون ويبثون بالهواء الصراخ والعويل .

بلغوا الجبابة فاجتمع الكهان يصلون ويبخرون وانفرد الموسيقيون ينفخون الابواق وبعد قليل انبرى الخطباء فأبثوا الراحل بمنتقيات الكلام ثم الشعراء فرثوه بمنتخبات المعانى وكل ذلك كان يتم بتطويل ممل وبعد قليل انقشع الجمع عن جدث تسابق فى صنعه الحفارون والمهندسون وحوله أكاليل الازهار المنمقة بأيدي المتفنين .

رجع الموكب نحو المدينة وأنا أنظر من بعيد وأفتكر ومالت الشمس نحو الغروب واستطالت خيالات الصخور والاشجار وأخذت الطبيعة تخلع أثواب النور

في تلك الدقيقة نظرت فرأيت رجلين يقلان تابوتاً خشبياً ووراءهما امرأة ترتدي أطماراً بالية وهي حاملة على منكبيها طفلاً رضيعاً وبجانبيها كلب ينظر اليها تارة وإلى التابوت أخرى — جنازة فقير حقير ووراءها زوجة تذرف دموع الالهي وطفل يبكي لبكاء أمه وكلب أمين يسير وفي مسيره حزن وكآبة.

وصالوا هؤلاء إلى المقبرة وأودعوا التابوت حفرة في زاوية بعيدة عن الاجداث الرخامية ثم رجعوا بسكينة مؤثرة والكلب يتلفت نحو محط رحال رفيقه حتى اختفوا عن بصرى وراء الاشجار

فالتفت اذ ذاك نحو مدينة الاحياء وقلت في نفسي :
— تلك للاغنياء الاقوياء . ثم نحو مدينة الاموات وقلت :
— هذه للاغنياء الاقوياء . فأين موطن الفقير الضعيف يارب ؟
قلت هذا ونظرت نحو النجوم المتلبددة المتلونة أطرافها بذهب من أشعة الشمس الجميلة . وسمعت صوتاً من داخلي يقول . . . هنالك .

بنات البحر

في أعماق البحر الذي يحيط بالجزائر القريبة من مطلع الشمس — هنالك في الأعماق حيث الدر الكبر جثة فتى هامدة بقربها بنات البحر ذوات الشعور الذهبية قد جالسن بين نبات المرجان ينظرن إليها بعيونهن الزرقاء الجميلة ويتحدثن بأصوات موسيقية • حديثاً سمعته اللجة فحملته الأمواج الى الشواطىء فجاء به النسيم الى نفسى •

قالت واحدة : — « هذا بشرى هبط بالامس اذ كان البحر حائقاً »

فتمالت الثانية : « لم يكن البحر حائقاً ولكن الانسان — وهو الذى يدعى بانه من سلالة الالهة — كان في حرب حامية أهرقت فيها الدماء حتى صار لون الماء قرمزياً وهذا البشرى هو قتييل الحرب . »

فقالت الثالثة : — « لا أدري ما هي الحرب ولكنى أعلم ان الانسان بعد ان تغلب على اليابسة طمع بالسيادة على

البحر فابتدع الآلات الغريبة ومخر العباب فدرى نبتون اله
البحار وغضب من هذا التعدى فلم ير الانسان بدا اذ ذاك
من ارضاء مليكننا بالذبائح والهدايا . فالاشلاء التى رأيناها
بالامس هابطة هى آخر تقدمه من الانسان الى نبتون العظيم
قالت الرابعة : — « ما أعظم نبتون ولكن ما أقسى قلبه .
لو كنت أنا سلطنة البحار لما رضيت بالذبائح الدموية .
تعالين لرى جثة هذا الشاب فرىما أفادتنا شيئاً عن طائفة
البشر » .

اقتربت بنات البحر من جثمان الشاب وبحثن فى جيوب
أثوابه فعثرن على رسالة فى الثوب الملاصق قلبه فأخذت
الرسالة واحدة منهن وقرأت :

« يا حبيبي . — ها قد انتصف الليل وأنا ساهرة وليس
لى مسل غير دموعي ولا معز سوى أملى برجوعك الى
من بين مخالب الحرب ولا أقدر بان أفكر الا بما قلته
لى عند الوداع بان عند كل انسان أمانة من الدمع لا بد من
ردها يوماً . لا أدري يا حبيبي ماذا أكتب بل اترك

تفسى تسيل على الورق . نفس يعذبها الشقاء ويعزيها الحب
الذى يجعل الالم لذة والاحزان مسرة . لما وحد الحب قلوبنا
وصرنا نتوقع ضم جسمين تجول فيهما روح واحدة نادتك
الحرب فاتبعتهما مدفوعا بعوامل الواجب والوطنية . ما هذا
الواجب الذى يفرق المحبين ويرمل النساء وييتم الاطفال ؟
ما هذه الوطنية التى من أجل أسباب صغيرة تدعو الحرب
لتخريب البلاد ؟ ما هذا الواجب المحتوم على القروى المسكين
والذى لا يحفل به القوى وابن الشرف الموروث ؟ اذا كان
الواجب ينفي السلم من بين الامم ، والوطنية تزعج سكينه
حياة الانسان ، فسلام على الواجب والوطنية ... لا لياحيبي ،
لا تحفل بكلامى بل كن شجاعا ومحب الوطنك ولا نسمع كلام ابنة
أعماها الحب وأضاع بصيرتها الفراق . اذا كان الحب لا يرجعك
الى فى هذه الحياة فالحب يضمنى اليك فى الحياة الآتية »
وضعت بنات البحر تلك الرسالة تحت أثواب الشباب
وسبحن بسكينه محزنة ولما بعدن قالت واحدة منهن : —
« ان قلب الانسان أقسى من قلب نبتون »



الزحافات و العلل

نظرة في الشعر وأوزانه

دع همومك التجارية ، والسياسية ، والعائلية يا أخى
وتأبط جراب صبرك واتبعنى . تسألنى الى أين ؟ - ولنفرض
الى جهنم ! وليست جهنم خيرا من عالم يصابحنا بالقال والقيـل ،
ويعاشينا بالقيـل والقال ؟ وما قيله الا هبوط أسعار وارتفاع
أسعار . وما قاله الا انتصار سياسة واخفاق سياسة فتأبط
جراب صبرك واتبعنى . ولا تسـل الى أين . قد أسلك بك
طريقاً وعراً . وقد أدخل بك أجمة ملتفة الادغال . وقد
أريك طرف مرج فسيح . وقد أعود بك من حيث انطلقت
كأنك لا رحت ولا جئت . فتمسك بجراب صبرك فالصبر
خير سلاح للمؤمنين . ولنمش

هل سمعت فى حياتك يا أخى برجل يدعى أباعبد الرحمن
الخليل بن أحمد البصرى الازدى الفراهيدى ؟ لا ؛ اذن
فاعلم وقاك الله ان أباعبد الرحمن (تغمده الله برحمته

ورضوانه) ولد في سنة مائة للهجرة وتوفي عن خمس وسبعين
عاما قضاهما بالبر والتعبد والتقوى - ووضع علم العروض
والعروض - رعاك الله - « علم بأصول يعرف بها
صحيح أوزان الشعر العربي وفاسدها وما يطرأ عليها من
الزحافات والعلل »

و« الزحافات والعلل » أوبئة تنزل بأوزان الشعر العربي
فتحرك ساكنها ، أو تسكن متحركها . وتقضم حرفاً هنا ،
ومقطعا هناك . وقد غنى بها الخليل عناية خاصة . فأعطى
لكل منها اسما ورتبها في أبواب وفصول هي أكثر عدا
من خطاياي

هذا هو أبو عبد الرحمن ياصاحبي . فلنقدس ذكره .
ولنجل مقامه . فلولاه لكان بلا زحافات وعلل . وكيف
تكتمل لنا السعادة بدون زحافات وعلل ؟ ولولاه لما
كان لنا علم العروض الذي « يعرف به صحيح أوزان الشعر
العربي وفاسدها » وأنى لنا أن نميز بين ما هو شعروما
ليس شعرا ما لم نعرف صحيح الأوزان من فاسدها ؟

لقد مات الخليل يا أخى . ومنذ مات الخليل حتى اليوم
ونحن منغمسون فى درس الخبز والخبل . والترفيل
والتذيل والنقص والوقص . والقطف والكسف .
والخرم والثلثم . والقصر والبتر . الى ما هنالك من علل زاحفة
وزحافات معتلة . الى أن ما كنا باذن الله ناصية علم العروض
وأصبحنا بمنة الخليل نميز بين « صحيح أوزان الشعر
العربي وفاسدها »

أما اننا فى جدنا وراء ناصية العروض قد أفلتت من
يدنا ناصية الشعر . واننا فى جهدنا وراء التمييز بين صحيح
أوزان الشعر وفاسدها قد نسينا الفرق بين ما هو شعر
وما ليس شعرا ، فما ذاك بالامر الخطير ! فالمهم المهم أن
نعرف اذا ما نظمنا بيتا اننا لم نجز لانفسنا ما لم يجزه الخليل
واننا لم نهتك حرمة قاعدة . ولم نخل بحرف من ناموس .
ولم نتجاوز حد تقليد شريف أو طقس مقدس . فاتكلنا
على الله ورحنا ننظم القصائد

ومن حسنات علم العروض يارفيق انه كثير البحور .

ولكل بحر من بحوره قوارب يتعذر عليك ركوبه الا بها
ولكل من تلك القوارب مقاذيف لا تدار الا بها ولكل
من تلك المقاذيف حلقات وحنيات ومماسك لا يعرفها الا غزير
الخبرة وطويل الاناة . لذاك فالملاحه فى هذه البحور تقضى
اقتحام الاخطار والمجازفة بالحياة . ولذاك قد حذرنا العاقلون
من الاقدام عليها اذ قالوا :

الشعر صعب وطويل سامه اذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
زلت به الى الخضيض قدمه يريد أن يعربه فيعجمه
غير ان أبناء الضاد ليسوا ممن يهابون المخاطر . ولا ممن
يؤثرون الحياة على الشرف . فكلما ترا كمت تلك العقبات
فى سبيلهم كلما ازدادت عزائمهم مضاء . وكلما عز الحصول
على شرف أثيل كلما هانت لديهم الارواح . فما كان منهم
الا ان هجموا على تلك البحور فلجموها أمواجهوا وامتطوها
وراحوا بين شواطئها يهزجون . نعم هوى بعضهم الى القاع
فطمست آثاره . ولكن أكثرهم طاف جميع البحور وعاد
سالما معافى

ومن مميزات الذين يخوضون بحور الشعر يا أخي
ويعودون سالمين انهم يكتسبون حنوا خارقا على الانسانية
بأسرها ، لا سيما علينا نحن أبناء اليابسة فلا يعودون اليها
فارغى اليد (وان عادوا فارغى الرأس والقلب) بل يتبارون
الى مشاطرتنا كل ما اكتشفوه وعرفوه بشأن الملاحاة في
البحور الشعرية . فيقدمون اليها ذلك لا نتفأ نتفأ بل يجمعونه
بين دفتي كتاب يدعونه « ديوانا » ويرفعونه اليها ليرفعونا
به اليهم

فلنمجد الملاحين يا أخي - أولئك الذين يحسنون الملاحاة
في بحور الشعر . والذين يرتقون في سامه فلا تزل بهم قدم
اذ لا يعجمون معربة ولا يعربون معجمة ! لنمجد العروض
وأبناء العروض :

هل اعتراك يا أخي الملل ؟ فعليك بحراب صبرك . اذ
اننا في مسلك وعر . وان شاء ربك سنقطعه سالمين
تسألني ما اذا كنت أتهمكم أو أعني ما أقول ؟ لا وتربة
الخليل لست متهمكم . فلعروض الخليل فضل على كبير

ولاصحابنا الملاحين فضل أكبر . أقول ان لهم فضلاً كبير
لان الخليل يوم جمع ما كان في زمانه من أوزان الشعر
وبوبها وحدد ما « يطرأ عليها من الزحافات والعلل » لم
يقصد سوى الخير ولم يتوخ الا خدمة لغة عزيزة عليه .
أما الذين جاءوا بعد الخليل فتقيدوا بزحافاته وعلله ألفاً ومائتي
سنة فإياهم أسدى جزيل شكرى . لانهم بمباراتهم في معرفة
« صحيح أوزان الشعر وفاسدها » قد أتقنوا الاوزان
وأهملوا الشعر . وباهمهم الشعر نبهونى اليه . وقد ينبهنا عدم
وجود الشيء الى الشيء أسرع مما ينبهنا اليه وجوده .

لنقف يا أخى بتخشع امام شبح من قال
« وشبيه صوت النعى اذا قيد بس بصوت البشير فى كل ناد »
ولنبحث امام ضريح من شرب « على ذكر الحبيب
مدامة » فسكر بها « من قبل أن تخلق الكرم »
ولنجبل النار التى كانت تتأجج فى صدر من نظر الاعمى
الى أدبه وأسمعت كلماته من به صمم
فهو لا ، وقليل ممن راودت أرواحهم أحلام من عالم أعلى

لجبايرة وان تقيدوا بقيود الخليل . فهم أكبر منه ومن
عروضه . فلنمر من امامهم صامتين . ولنتابع السير الى
حيث الدواوين الحافلة بصحيح أوزان الشعر، الناطقة بألف
لسان بفضل الخليل . المرددة بألف قافية شكر الزحافات
والعلل ، الناضرة بألف عين لا الى جمال الحياة بل الى جمال
الالفاظ والمقاطع ، المصغية بألف أذن لا الى نبضات القلوب
وخطوات الافكار بل الى يد تصفق استحسانا ولسان
يثرثر بالمديح . ان هذه الدواوين يا أخى لافصح ما كتب
فى الشعر وعنه ، لانها محشوة بما ليس شعرا . لذلك كلما
بلاك الله بواحد منها تتوق نفسك الى تقيضه . أى تتوق
الى الشعر ولذلك قلت انها أفصح ما كتب فى الشعر وعنه
مهلا يا أخى ولا تكن لجوجا . ولا تسلى أن أحد ذلك
الشعر . فالشعر غير محدود . ولا يحيط به ادراك الا أصحاب
دواويننا المكرمون . فقد قام بينهم حديثا جهبذ جمع فى
مقالة واحدة ١٧٧ تعريفاً للشعر عن السنة كثيرة — من

ابن خلدون الى ميخائيل رستم ! ومن ارسطو طاليس الى
جورج ساند — فعليك بديوانه

أما أنا فلا اطلأعنى واسع لهذا الحد . ولا صبرى طويل
بهذا المقدار . فلنعدل عن تحديد الشعر وتعريفه . وذلك
لا يمنعنا من أن نتكلم فى الشعر . فتعال نتبادل الخواطر
والنظرات

هل ضحككت يا أخى فى حياتك وهل بكيت ؟ هل
ساورت أفكارك شكوك أم سرحت فى صدرك آمال ،
أم عصرت قلبك خيبة ، أم مزق نفسك ألم ؟ هل طرقت
أذنك نغمة فطربت بها روحك ، أم رأت عينك مشهداً
فاهتز له كيانهك ؟ اذن لا شك تفهمنى لو سكبت أمامك
دموعى . وكشفت لك صدرى . وحدثتك عن آلامى
وآمالى . ووصفت لك نغمة أطربتنى أو مشهداً هزنى . وأنا
بدورى أفهمك . وكلانا يفهم الغير

ولو كان لك من سبيل الى ترجمة عواطفك وأفكارك
بالصينية أو الهندية أو اليابانية أو الألمانية لفهمك الصينى

والهندي والياباني والالمانى كذلك . فما هو السر فى ذلك ؟
ما السر فى ان روحك وهى فى دمشق أو القاهرة تستطيع
أن توصل أناتها وتهايلها الى روح فى أقصى شمال الارض
وجنوبها أو شرقها وغربها ؟

السر يا صاحبي فى ان نفسك ونفسى ونفس بطرس
وأحمد — كلها تستقى من مورد واحد . وذلك المورد هو
الحياة . وان شئت فقل النفس الجامعة أو الله . فالحياة وان
تعددت مظاهرها وتنوعت أزيائها ، هى هى . وجوهرها
واحد لا يتغير . غير ان ما نستقيه من هذا المورد يتنوع
بمقدار الظم الداخلى فينا . فبعضنا اذا ما شرب من المراتة
غلب غلب الجمال . بينما يمتصها الآخر مص العليل للدواء .
وبعضنا اذا ما هزته نعمة رفعتة الى الجو . بينما يسمعها
الآخر فينتفض قليلا « كالدورى » ويعود يبحث فى الروث
عن شعيرة يلتقطها

ان الحياة يا صاحبي تعرض مشاهدها على وعليك .
لكنك قد ترى مشهدا لا أراه أنا وان أكن مفتوح العينين .

بل قد أنظر وإياك الى مشهد واحد فترى فيه أشياء لا أراها
وتسمع ما لا أسمعه . هكذا قد أمر بدودة تدب على
الارض فأدوسها أو أحول وجهي عنها وأمشى في سبيلي .
وتمر بها أنت فتقف مراقبا حركاتها ثم ترفعها بيدك وتدرسها
ملياً ثم تضعها من يدك وتنطلق وفي رأسك قد تجمهرت
أشباح وأمام عينيك قد مشت رسوم، وفي أذنيك قد دوت
أصوات . ولا يعلم ان تنتظم تلك الاشباح وتندمج تلك
الرسوم وتتألف تلك الاصوات في قصيدة أو مقالة أطلعها
أنا فأشعر كأن أشباحها تجمهرت في رأسي ورسومها مشت
أمام عيني وأصواتها رنت في أذني . لقد مررت وإياك في
مثل هذه الحالة بمورد من موارد الحياة . فشربت منه قطرة
حيث شربت قطرات وفي من الظمأ ما فيك . غير اني
ما كنت أشعر بظمئى الى ان سمعتك تصف لى ظمأك
وكيف ارتويت

أنا وأنت غريبان نحن الى وطن واحد . وفي ما فيك من
الحنين . غير ان حنيني أبكم أصم : وحنينك ناطق ومجنح

لذلك اذا سمعت حنينك متكلمًا محرك حنيني وتكلم . لانه
قد وجد في حنينك لسانًا له

أنا وأنت حائران في أمور كثيرة . وحيرتي قد تغلغلت
بين أفكارى وتمددت حتى لم أعد أعرف في ما أنا حائر .
لكن حيرتك نصب عينيك فاذا ما صورتها لى تصورتي
أمامى حيرتى

تسألنى — وما القصد من هذه الامثال كلها ؟ ان
قصدى يا صاحبى أن أقول — بان عواطفنا وأفكارنا مشتركة
لان مصدرها واحد وهو النفس

وان فى الواحد منا ما فى الآخر من العواطف والافكار
لكنها قد تكون مستيقظة فى بعضنا ، غافلة فى الآخر .
وان هذه العواطف والافكار ، وان استيقظت فى بعضنا ،
قد تكون خرساء . وانها فى بعضنا مستيقظة وناطقة .
وان العواطف والافكار اذا ما استيقظت ونطقت بنفسها
بعبارة جميلة التركيب موسيقية الرنة كان ما تنطق به شعرا
وان من استيقظت عواطفه وأفكاره وتمكن من أن

يلفظها بعبارة جميلة التركيب موسيقية الرنة كان شاعرا
واذان العواطف والافكار هي كل ما نعرفه من
مظاهر النفس فالشعر اذن هو لغة النفس

والشاعر هو ترجمان النفس
هذا ما أعرفه يا أخى عن الشعر والشاعر فلنعد الى
الزخافات والعلل

لقد وضع الناس الشعر أوزانا مثما وضعوا طقوساً
للمصلاة والعبادة . فكما انهم يتألقون فى زخرفة معابدهم لتأتى
« لائقه » بجبروت معبودهم . هكذا يتألقون فى تركيب
لغة النفس لتأتى « لائقه » بالنفس . وكما ان الله لا يحفل
بالمعابد وزخرفتها بل بالصلاة الخارجة من أعماق القلب
هكذا النفس لا تحفل بالاوزان والقوافى بل بدقة ترجمة
عواطفها وأفكارها

أذكر يا أخى قول الناصرى — « حيثما اجتمع اثنان أو
ثلاثة باسمى هناك أكون فى وسطهم » ؛ لم يحدد ابن مريم
مكانا معلوما لعبادته . فقد يجتمع اثنان باسمه على رأس

جبل أو في جوف واد أو على ظهر باخرة أو في قهوة أو في
منجم للفحم . ويكون هو بينهم . والشعر يقول — حيثما
تفاهمت نفسان أو ثلاث باسمى هناك أكون في وسطهن
فلا الاوزان ولا القوافي من ضرورة الشعر كما ان المعابد
والطقوس ليست من ضرورة الصلاة والعبادة. فرب عبارة
منشورة جميلة التنسيق ، موسيقية الرنة كان فيها من الشعر
أكثر مما في قصيدة من مائة بيت بمائة قافية . ورب صلاة
خارجة من قلب منكسر فوق رمال الصحراء أدركت غايتها ،
وذهبت كصرخة في واد صلوات خارجة من مئات من
الافواه بين مئات من القناديل والشموع تحت سقوف
مرصعة وقبب مزر كشة

غير ان القصد الاولي من طقوس العبادة لم يكن الا شريفاً
لاعتقاد الناس ان الله لا يجيب صلاة الا اذا ارتفعت اليه مع
دخان محرقة : ولا يقبل محرقة الا اذا تقدمت اليه بطريقة
معلومة وبعبارات منتخبة . وكذلك القصد من اوزان الشعر .
فقد رأى الاقدمون ان الشعر ، وهو لغة النفس ، لا يليق

بها ما لم يكن مقيدا بأوزان . اذ وجدوا ان الاوزان تساعد
على تنسيق الجُمْل وتوازنها . وفي التوازن سر من أسرار
الجمال .

ان طقوس العبادة على اختلاف أنواعها جميلة لمن يفهم
سر رموزها . وليس من طقس الا يرمز الى فكر . لكن
من طبيعة الجمهور أن ينظر الى ظواهر الامور كما لو كانت
هي جواهر الامور . فالجمهور لا يفكر . بل يقبل الاشياء
كما هي . لذلك فالرموز تحمل عنده محل ما ترمز اليه . ولذلك
ترى الديانات أصبحت مجموعة طقوس وعوائد . فالذي تمكن
من حفظ كل تلك الطقوس والتقاليد تأهل لان يكون
كاهنا أو شيخا أو قسيسا

ولو نظرت الآن يا صاحبي الى أوزان الشعر وجدت
ان حكايتنا معها هي حكايتنا مع طقوس العبادة . ان القصد
الاساسي من الوزن هو التناسق والتوازن في التعبير عن
العواطف والافكار . ولا شك ان الاوزان نشأت نشوءا
طبيعيا . وكان سبب ظهورها ميل الشاعر الى تلحين عواطفه

وأفكاره . والكلام المتوازن المقاطع أسهل للتلحين من
الكلام الذي لا توازن بين مقاطعه من حيث الطول والقصر
لذلك لحق الوزن بالشعر ونما معه نمواً طبيعياً . فكان
يتكيف بالشعر ولا يتكيف الشعر به . هكذا نما الشعر
العربي ونمت أوزانه . وما زال الوزن لاحقاً والشعر سابقاً
الى أن قيض الله لأبي عبد الرحمن ان جمع كل ما توصل
اليه من الأوزان فبوبها وحددها وجعل لكل منها قواعد
ولكل قاعدة جوازات وللجوازات جوازات الخ

منذ ذاك الحين يا أخى أخذ الوزن يتغلب رويداً رويداً
على الشعر الى أن أصبح الشعر لاحقاً والوزن سابقاً
وأصبح كل من قدر أن يتغلب على عروض الخليل بأوزانها
وزحافاتهما وعللها أهلاً لان يدعى شاعراً . وذلك راجع الى
ماقلته عن طقوس العادة بان الجمهور من طبيعته ان ينظر
الى ظواهر الأمور كما لو كانت هي جواهر الأمور

لو نظرت يا أخى الى ما جمعناه منذ نيف وalf سنة

لوجدته — مع استثناء قليل منه — معرضاً للابحر الشعرية
بين طويلها وبسيطها وكاملها وخفيفها الخ مع ما « يطرأ
عليها من الزخافات والعلل »

لا تضحك ، فالموقف موقف بكاء لا ضحك ، أمن
المضحكات أن تدفن الف سنة من حياتنا الادبية بالزخافات
والعلل ؟

العروض لم تسيء إلى شعرنا فقط بل قد اساءت إلى
أدبنا بنوع عام ، فبتقديمها الوزن على الشعر قد جعلت الشعر
في نظر الجمهور صناعة إذا أحاط الطالب بكل تفاصيلها
أصبح شاعراً ، واذ أن للشاعر منذ بدء التاريخ مقاماً رفيعاً
بين قومه أصبح كل طالب شهرة يلجأ إلى العروض كإلى
أقرب الموارد ، وبذلك انصرفت أكثر مواهبنا إلى قرض
الشعر فافقنا اليوم ولا روايات عندنا ولا مسارح ولا علوم
ولا اكتشافات ولا اختراعات ، ولا شك أن كثيرين ممن
انصرفوا إلى النظم حباً بالشهرة لو انصرفوا إلى غيره من
أبواب الكتابة والدرس لجاءوا معاصريهم وجاءونا بنفع

كبير ، ناهيك عن أن درس علم العروض يستغرق وقتاً طويلاً ، فقل معي - والهف قلباه على عقول إحداث لا تزال تصارع العروض على مقاعد المدرسة لقد بلغ منا الوله بالعروض درجة أصبحنا معها لا ننطق الا شعراً (وأعني نظماً) . حتى قواعد نحونا أئينا أن نلقنها لاحداثنا إلا منظومة ! هاك الفية بن مالك وهاك « نارالقرى » بل قد نظمنا الحساب والجبر والجغرافية والطب والفلك ، ولم لا ؟

وأصبحنا نتراسل نظماً ، ونتصافح نظماً ونشرب الخمر نظماً ، ونا كل الكبة نظماً ، ونعمد أولادنا نظماً ، ونزوجهم نظماً ، ونستقبل أصدقاءنا نظماً ، ونودعهم نظماً ، ونهنئهم بعيداً أو بمركز أو بمولود نظماً إلى أن لم يبق في حياتنا مالميس منظوماً سوى عواطفنا وأفكارنا ! وعندمادانت لنا العروض وأتتنا زحافاتنا وعللها صاغرة رحنا نكتشف طرقاً جديدة نظهر بها مقدرتنا « النظمية » فاهتدينا إلى التواريخ الشعرية فصرنا إذا مات صديقنا « حاتم منصور » - لا

نكتفى بأن نشق عليه الجيوب ، ونستمطر السحاب ونقرح
المائي . ونشتم الموت . ونعاتب الدهر . ونواري الشمس
والقمر في التراب ، بل نحفر على حجر فوق رأسه تاريخ
موته بأحرف منظومة لا بارقام بسيطة

زر قبر حاتم منصور الكريم وقل
كم حسرة لك في طي القلوب ترى
تسقيك أجفاننا أرخ بادمعها
ياغصن بان لواه البين فانكسرا

فانقلب الشاعر بهلوانا وأصبح الشعر ضربا من الحليج
والجر والمشى على الاسلاك والانتصاب على الرأس ورفع
الاثقال بالاسنان واف الرجلين حول العنق الى ما هنا لك
من الحركات التي تجيدها القردة أيما اجادة . من ذلك
الالغاز الشعرية . وحل الالغاز . والمنظومات التي بعض
مفرداتها أو كلها منقطة . وبعضها أو كلها مهملة . أو حرف
منقط فيها يليه حرف مهمل والتشطير والتسميط والتخميس الخ
ومن المضحكات المبكيات يا صاحبي ان مثل هذه

الحركات البهلوانية كانت ولا تزال تعرض في سوق آدابنا
«كشعر» وأربابها كانوا ولا يزالون في مقدمة الشعراء
عندنا والشعر براء منها ومنهم . فعلى من اللوم ؟

أى يا أخى . انك لمحق في قولك بان ليس كل شعرنا
من هذا القبيل . بل أبواب الشعر عندنا كثيرة وواسعة .
فمنها الغزل والنسيب . ومنها المديح والهجاء . ومنها العتاب
والرثاء . والفخر والخمر . لكن هذه الابواب يا أخى قد
أصبحت كذلك معرضاً للعروض والقوافى لا للشعر

لقد كان البدوى يتصبب على الاطلال والدمن ،
وينادى الربوع والركبان ، اذا نظر الى القمر رأى وجه
حبيبته فيه أو الى الظبي رأى عنقها فى عنقه وفى عينيه
عينها . ونحن لا نزال نتصبب على الاطلال والدمن ولا
اطلال عندنا ولا دمن وننادى الركب ولا ركب نناديه .
وقل ممن يقرض العروض فى أيامنا من رأى فى حياته ظبياً
فالتأ . . .

واذا هزتنا الحماسة طعناً بالهندوانى واليماني ونحن لم

نطعن في حياتنا ضناً ولو بسكين صغيرة
واذا مدحنا لم نجد بدا من وضع من نمدحه فوق
الشمس والقمر

لقد شام هذا البدر فيك رجاجة
عليه بميزان البها اذ تأملك
هوت كفة الميزان فيك الى الثرى

وخفت به الاخرى فعلق بالفلك
واذا رثينا لانجد سبيلا لثناء الفقيد الا بدم الاحياء
والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد
فالمت لم يترك ولم يخرني بعد يا أخى . فلا أنا ولا
أنت من الجياد ولا مدح الملايين التي تصبح على وجه
الارض وتسمى بل الجود كل الجود تحت التراب ، ولا
يمشى فوق التراب سوى كل زعيم خسيس

أى لحق ما تقول ، فليس كل ما ينظمه شعراؤنا من
هذا النوع . لاسيما شعراء اليوم ، فقد أخذوا يفتشون عن
مصادر جديدة يستقون منها الالهام ، ويحضرني الآن بعض

منها الطيارات ، الكهربائية الغازات المسممة ، التلفون ،
الفونوغراف ، كرة الرجل أو « الفوتبول » . الاستقلال ،
حقوق الحيوانات ، الديمقراطية ، الاشتراكية الخ ، الخ ،
نعم نعم هم ينظمون اليوم في مثل هذه المواضيع ، وفي ذلك
شاهد على أنهم سائرون مع العصر لا وراءه . لذلك يدعونهم
« عصريين » ، اعتبر ذلك أيضاً في دواوينهم ، أولا ترى
كيف يتفننون اليوم في طبعها ؟

لقد كان واحداً سابقاً يكتبني بنشر ديوانه مبوباً
تبويماً محكماً أو مرتباً حسب أحرف الهجاء ، أما اليوم فتأخذ
الديوان وتجد فيه عدا عن القصائد الشائقة العصرية رسوماً
لا تترك عندك من شك في عبقرية الناظم ، هناك رسمه وهو
في العاشرة ثم رسمه وهو في العشرين ، ثم في الثلاثين
ثم رسم زوجته وأولاده ، ورسم بيته ، ورسوم أصحابه
الذين رثاهم ورسوم أقربائه الذين هنام أمابمولود أو بمعمود
أو بزفاف أو بعودة بعد غيبة

نعم ، نعم ، ان هذه كلها « لمواضيع عصرية » والذين

ينظمون فيها لاشك « عصريون » - سائرون مع العصر
لا وراء وانما ينقصهم أمر واحد - وذلك أن يسيروا ولو بعض
الطريق وراء الشعر فقد ساروا أجيالا وراء الزحافات والعلل
لا بد لنفسى ونفسك يا أخى وأنفس من ينظمون
« عقود » المدح الفارغ والثناء الشائن والغزل الذي لا غزل
فيه من أن تستفيق يوماً من غيبوبتها الطويلة ، حتى أنفس
من ينظمون التاريخ ليأتيها يوم تنفتح فيه أعينها فترى
الشمس والفضاء ، ولا تستفيق أنفسنا إلا إذا شعرت
برعشة الحياة في داخلها ، لان الحياة فينا لا خارجاً عنا ،
وما التأثيرات التي تحدثها فينا الطبيعة أو الحياة الخارجية
إلا منبه لما كن في داخلنا من العواطف والافكار ، فلو لا
عواطفنا ولولا أفكارنا لكان ما ندعوه « الطبيعة » صحيفة
بيضاء ، ان الحياة ارث مشترك ولى فيها ما لك ، غير أن
ما ينتفع به كلانا من هذا الارث يتوقف على ما تنبه فيه من
من العواطف والافكار لانها مفتاح اهراء الحياة العجيب

الذي كلما ولجت منه باباً أدى بك الى باب سواه
أى . يا أخى ان عواطفنا وأفكارنا هي ما استيقظ من
الحياة فينا ، ومن الغريب أنه كلما تحركت فينا عاطفة أو تملل
في داخلنا فكر تأتيمها ساعة تلفظهما النفس كما تدفع الحامل
الجنين من أحشائها عند اكتمال دور الحمل كأن النفس لا
تعرف ما في داخلها إلا إذا انتصب أمام عينيها ، وكما أن
الحامل تجهض وتعود فتحمل ، كذلك النفس كثيراً ما تلفظ
عواطفها وأفكارها قبل الاوان فتظهر ناقصة مشوهة ،
لكنها أبداً تعود فتحمل وتعود فتلد ، والنفس التي تولد
عواطف جميلة وأفكار حية ناضجة هي النفس المستيقظة
النفس الشاعرة ، وما تولده مثل هذه النفس هو الفن والفن
إذا اتخذ الكلام ثوباً كان شعراً

أما النفس التي لا تولد إلا أوزاناً صحيحة وقوافي رنانة
فهي النفس المصابة بالعم ، ولا بد لهذه النفس من أن تتلحح
يوماً بمرثومة الحياة فتجد في داخلها عواطف وأفكاراً
لا أوزاناً وقوافي فقط

لقد نهيتنى يا أخى الى أمر ما كنت غافلا عنه حين
قلت لى أن شعراءنا في هذه الايام قد تعدوا أبواب الشعر
القديمة وإنهم يفتشون عن مواضيع جديدة تجول فيها
قرايحهم فذكرت لك بعض تلك المواضيع وضحكت منها
وضحكى كان ممزوجاً بالمرارة والامل ، أما المرارة فلأن
شعراءنا لا يزالون يبحثون عن الشعر فى رغبة الحياة
وفقائيعها . وأما الامل فهو انهم يبحثهم عن مواضيع
جديدة لا بد من أن يعثروا يوماً على الشعر فيدركوا انه
لا ينحصر فى عشرات من البحور ولا فى ألوف من الابواب .
ففى كل عاطفة باب وفى كل فكر بحر . بل ان فى مظهر
واحد من مظاهر العاطفة الواحدة الف باب وباب . وفى
ثنية واحدة من ثنيات الفكر الواحد الف بحر وبحر .
ومتى أدركوا أن مصدر الشعر طى النفس عكفوا على درس
نفسهم وتفقدوا زواياها وخبائياها . حتى اذا ما عثروا هناك على
عاطفة ترتعش وفكر يتململ صاغوا لتلك العاطفة ولذاك
الفكر لباساً من الكلام يليق بهما . وليس من الكلام

ما يليق لباساً للعاطفة الحية والفكر المستيقظ الا ما جمع منه
بين تأليف ألوان الرسام وتناسق أشكال النحات وتوازن
خطوط البناء وترايط الحاق الموسيقى
حينئذ يا أخي ثمر قرائنا فيكثر شعرنا وتقل
زحافاتنا وعللنا







الداء العياء

ظهرت منذ مدة في مجلة « الهلال » قصيدة « لا مير الشعر » أحمد شوقي بك بعنوان « درة شوقية ». ثم رأينا بعد ذلك في أحد أعداد « السائح » مقالا لميخائيل نعيمة ينتقد فيه تلك القصيدة انتقاد شاعر صميم ونقاد ماهر لا تلهيه رنات القوافي ورقصات الاوزان عن الجذ في تطلب المعاني الرزينة . فكان ان تلك « الدرة » — بعد أن تفحصها نعيمه بمكر سكوب شاعريته ونقر عليها بمطرقة قريحته — لم تكن درة . بل كانت صدفة براقة تصلح للعب الاولاد . أما البالغون المدركون فلا قيمة لها عندهم

لا شك ان كثيرين من ذوى الذوق السليم وأنصار الحرية الأدبية في أميركا ومصر وسوريا لا يترددون في الانتصار لناقد القصيدة على ناظمها . ولا شك أيضاً في ان ألوفاً من مريدي « أمير الشعر » وتابعيه يودون لو أعطى لهم أن يتخذوا الفضاء صفحة مخطون فيها بدلاً من الشمس

علامة سؤال وبدلاً من القمر علامة تعجب ويصورون
بساط النجوم والمذنبات هذه العبارة — « من هو هذا
النعيمه ليتجراً على رفع بصره الى عرش أمير الشعر ؟ ! »

من واجبات الايام الجواب على هذا السؤال
أما أنا . أنا الدودة الحقيمة فلا أتجاسر على المخاطرة
بحياتي « ودحش نفسي بين هذين الجبلين » لالا . أحب
الى خوض معارك السوم وفردون من الخوض فى هذه
المعمعة . لذلك عولت على أمر لم يفعله قبلى سوى الخطيئة
القائل

أبت شفتاي اليوم الا تكلم * بسوء فما أدري لمن أنا قائله
أرى لى وجهاً قببح الله خلقه * فقبح من وجهه وقبح حامله
نعم قد عولت على هجو نفسي كما هجا ذاك وجه
الخارجى . لكن بينى وبينه فرقا بعيداً أرجو القراء أن لا
يتجاهلوه لكيلا يضيع عليهم المقصود من هذه الاسطر
وهو ان زميلى الخطيئة المرحوم هجا وجهه لمجرد اللذة

في الهجو كما يعترف . وانا انما أفعل ذلك أولاً حبا بقول الحق وثانياً التماساً للنفع العمومى

كنت في نيويورك يوم وفاة الاسقف رفائيل هواوينى وبما اننى كنت في ذاك الزمان أعد نفسي في طليعة فحول الشعراء ، وبما انه من أولى واجبات الشاعر رثاء من يموت من كهراء قومه — دبحت اسمى الكريم في بروغرام حفلة التابين ومضيت الى غرفتى فأخذت قاماً وورقة وجلست أعصر دماغى مدة عشر ساعات الى أن أتيت على قصيدة في ثمانية وأربعين بيتاً . أو قل ثمانية وأربعين سهماً مسموماً في صدر الشعر الحقيقى . أو ثمانى وأربعين دملة في وجه الألب السامى الجميل

تأملوا بهذا المطلع —

ماذا أقول وقد أضل جنانى هول المصاب وغل فيه لسانى
انظروا ! جئت أسأل القوم ماذا أقول ، إن كنت لا
أدرى ما الذى أقوله فلماذا وقفت على منبر التابين ، وإن
كنت أدرى فلماذا سألتهم ؟ ثم اذا كان هول المصاب قد

أضل جناني وغل لساني فمن عاد فهدي ذاك الجنان وحل
عقدة ذاك اللسان حتى تمكنت من القاء ثمانية وأربعين بيتاً
(على فرد نفس) ؟

طرق النعي مسامعي فكانما سهم أصاب حشاشتي فرماني
أقسم بكل عزيز انه عند ما طرق مسمعي خبر الوفاة
سررت لعلمي بان أمامي فرصة اظهر بها « بلاغتي الشعرية »
أو بالاحرى بلادتي الادبية

ما كنت أعرف مرة معنى البكا

حتى بكيت لفرقة المطران

أصحيح أن امين مشرق بكى لفرقة المطران وهو لم
يكن يعرفه ولا رأى قط وجهه ؟ لا أرى أحداً من سكان
الارض يصدق ذلك . وهب جدلاً اني بكيت ، ألم أبك
قبلا على أعزاء من أهلى ماتوا وواري التراب أجسادهم
المحبوبة فان كانت الدموع التى ذرفتها على أولئك الاعزاء
غير كافية لتفهمنى معنى البكاء أفتفعل ذلك دمة أذرفها على

رجل غريب عى ومجهول مى ؟ سبحان من علمى هذا المنطق
وهلا تصدقون ان فى الاجساد البشرية براكين
كبراكين الارض اسمعوا

طفع الفؤاد وفاض فى نيرانه فكانما هو فوهة البركان
ألف حمد لله على سلامة الدن يا من شر ذلك البركان
ومنها

لو يفتدى حكم الاله رايتنا نفديك بالارواح والابدان
متقاطرين على الردى متسابقين اليه من شيب ومن شبان
لو وقف عزرائيل فى تلك الساعة عند رأس الميت
وسأل ذلك الجمع الغفير متطوعاً واحداً يسامه نفسه عوضاً
عن نفس الاسقف فمن يتقدم ؟ وهل تمتلىء تلك الكنيسة
جثثاً أم تضيق أسواق بروكان الواسعة بجماهير النساء
والرجال وكل مطلق ساقيه للريح وفى مقدمتهم هذا
الداعى ؟

كفى يكفى . اننى اشفق على القراء من أن أداهمهم

ببقية هذه المقيثات . هذه الاقدار المنتنة . هذه الميكروبات السامة ! ومن المضحك المبكى انه على أثر انتهائى من اللقاء تلك القصيدة تقدم إلى أحد أصحاب الجرائد فى نيويورك طالباً اياها ليزين بها جيد جريدته فاعتذرت اليه بلطف « وكبرياء » أن فيها أيباتا لا تزال برسم التصليح فلا أتمكن من نشرها حالا ، وكان قصدي أن أتخف بها صديقي صاحب السائح الذى « دحشها فى عبه » بعد ذلك بعشر دقائق . ولكن جريدة السائح — فى تلك الايام — كانت تستاهل قصيدتى . فانها ظهرت بعد يومين وجميع صفحاتها مكرسة لوصف تلك الليلة تحت موضوع « حفلة تذكارية » (هكذا ظهرت أيضاً بقية الجرائد) وفيها ما فيها من المنظوم والمنثور وكله ابن عم قصيدتى فى البلاغة والرقه كاتب هذه السطور لا يقصد بها اللوم والتقريع . لكنه كاحد المتعلقين باذيال الادب يملك مقداراً من غيرة نثيره وإخلاص يدفعه من حين الى آخر لالقاء كلمة أو ابداء ملاحظة قد تندفع أحياناً من صدره بعزم القنبلة لطيلة

ما يتحملها وشدة ما يضغط عليها . ذلك لانه قدر له كما قدر
لكثيرين سواه ان يستفيق من « غيبوبة » سداها الالهام
ولحمتها النسيان نلقيا على بصائر وقلوب البشر أو هام
الحداثة وأحلام الصبا فتضعف فيها نباهة الاحساس
وتشوش عليها دقة الشعور والتميز استفاق ونظر الى
حياته الادبية الماضية كما ينظر من رأس جبل الى السهل
البعيد فرآها بكل ما فيها من الاقوال والافعال والافكار
وبكل ما حوته من الاشواق والاحلام والامال وهما وضللا
ثم نظر الى رفاقه من أبناء شعبه متفحصاً مستجلياً .
مقابلاً ، فاذا بالاكثرية — الاكثرية الهائلة منهم — قد
نسجت حياتها الادبية على نفس المنوال وسارت في نفس
الطريق ، وجد نفسه مع الالوف المؤلفة من حملة الاقلام
بيننا يسرون في موكب التقليد ، ناشرين أعلام الجهل ،
ناخين أبواق الضلال ، ضارين طبول الوهم والادعاء ظاهرين
سيوف الخيل ، والتعصب باسم الادب ليزبحوا بها شرذمة
قليلة من اخوانهم الابطال المدافعين على أسوار برج الادب

ويدكوا ذاك البرج ويمجوا أناره ، لذلك يقف الآن في وسط
الطريق ويصرخ في رفاقه صرخة مريرة املا ان يوقفهم عند
حدهم صداها القاسى الشديد

قد يكون هؤلاء القوم المهوسون باجمعهم غير قابلين
اصلاحاً لانهم لم يخلقوا ليكونوا من أهل الادب ، وقد
يكون بينهم فئة قليلة أو كثيرة ممن وهبتهم الطبيعة شيئاً
من المقدرة الادبيه لكنها لاتزال محجوبة لانهم لم يستفيقوا
بعد من « غيبوتهم » ولم يتفحصوا شؤونهم بعيون
الاخلاص التى لا يشوبها غرض . فلمثل هذه الفئة لاغيرها
توجه هذه السطور عليها تقع منهم على عاطفة خدرها الوم
فتنبهها أو فكرة أعماها التقليد فتهدىها ، ولجميع من يفهم
العربية أقول ان الداء الذى أكل لحم لغتكم ونخر عظمها هو
داء مزدوج - داء المبالغة وداء الالفاظ

المبالغة

مما يخفف ثقل اللوم عن عواقب حملة الاقلام بيننا
ويكسر من حدة قلم الناقد المتهبة أمر حقيقى فينا كالحياة

ثابت كالزمان وهو — قواعد الادب الموروثة

لو سمعنا أحد شعراء هذا العصر يرثي اسكافاً من أقربائه
مات بين النعال والاحذية قائلاً ان الفضل مات بموته والعلم
هدركنه والادب أمسى يتيماً ويتعجب كيف ان النجوم لم
تنظف حداداً والدهر لم يقف حائراً . أو لو قرأنا شعراً
لآخر يمدح فيه أنور باشا وحصانه الادم بقوله ان صهيله
« في قلب أوروبا له ترديد » . أو لو سمعنا عاشقاً ينشد

أمر بالحجر القاسى فالثمة لان قلبك قاس يشبه الحجر
وسألنا الشعراء الثلاثة لماذا كل هذا الغلو لضحكوا
منا ولا شك مشفقين لجهلنا ثم أخرج أولهم من تحت
ابطه كتاب علم المعاني والبيان . وأظهر الثاني ديوان المتنبي
أو الفارض . وفتح الثالث كتاب نهج البلاغة وقدموها
الينا وقد لاحت ابتسامة الانتصار على ثغورهم ولسان حالهم
يقول — « تعلموا هنا قواعد البلاغة وحدود البيان وبعدئذ
لا تحتاجون الى سؤال »

هؤلاء القوم ، وبالإلأسف معذرون بعض العذر .

كيف لا وكل ما تعلموه منذ أصبحوا يتهجأون الكلمات
يبتدىء ب « حدثنا سهيل بن عباد قال » وينتهي بشرح
المعلقات السقع ؟ ايلام التاميد على حفظ مسائله . أو ليس
طبيعياً أن تنمو النبتة معوجة اذا ربطناها الى حائط معوج .
وهل الذنب ذنب الارض انها لا تعطي قمحاً اذا زرعتها
قطربا ؟

لكن دعونا الآن من الذنب والمذنب وتعالوا نبسط
أمامنا تلك القواعد والحدود التي أورثنا اياها صاحب
نهج البلاغة وصاحب علم البيان وأمثالهما لنجر عليها ونتمسك
بها في مزالق الشعر ومهاوى النثر . فهل ذاك صحيح ان —
« أعذب الشعر أ كذبه » ؟

الشعر والنثر كلام

ونتيجة الكلام التفاهم

ونتيجة التفاهم التأثير

وأبلغ تأثير في الكلام الصادق

امرأة تحنو على جثة وحيدها نائرة دموع قلبها بصمت .

وأخرى تتباكى معها مولولة ، معولة ، متفجعة بصراخ
يصم الاذان . تجثو مع الاولى وقد تسرب حزنها الصامت
الى قلوبنا لصدقه ، وندير ظهورنا الى الاخرى متأففين
وقد نم عويلها عن حزنها الكاذب . ينظر يسوع الناصرى
الى مسامه يهوذا الاسخريوطى ويسأله بسكون واطف
« يا صاحب لماذا جئت ؟ » فتفعل هذه العبارة البسيطة
المختصرة في نفوسنا أكثر بألف ألف مرة من ألف
خطاب لآلف محام شهير فى ألف عصر . شحاذاً يقول
لنا أولهما « أنا جائع » ويسكت فتتحنن عليه ونطعمه .
والثانى يتلو علينا موعظة يسوع على الجبل ، باكياً بدموع
راحيل ، متوجعاً كتوجع الخنسا . فنلوى عنه كارهين
مشمزّين

عرفت رجلاً ذا لسان ماهر بتنميق الكلام وله طرق
خصوصية فى اللهجة وإشارات رشيقة وحركات وغمزات
تغري السامع للأصغاء وتترك لعبارات المتكلم رنة لطيفة
ناعمة يتهادى صداها الى حين طويل . وله فصاحة فى اللفظ

واحاطة بالوصف قلما يجاريه بهما ممثل أو خطيب . اذا
عرضت في حديثه بصلة ، مثلاً يصورها للسامعين مفصلاً
شكها ولونها ووزنها ورائحتها وطعمها حتى يكادوا أن
يشعروا برائحة البصل في أنوفهم وبطعمه على ألسنتهم .
ومع كل ذلك لم يكن أحد يصغى اليه الا اذا أراد الضحك
والتسلية . وبقيت جاهلاً السبب الى أن اجتمعت به مرة
وجعل يحدثني عن بقرة عجيبة واصفاً اياها وصفاً دقيقاً جميلاً
حتى كدت أراها أمامي . وكل ذلك الوصف لم يكن الا
كمقدمة لخبر عجيب وهو انهم كانوا يطعمون تلك البقرة
أقّة من الارز صباحاً ويحلبونها في المساء « سطل رز بحليب
بسكر وما زهر » عندئذ عرفت السر الذي يمنع القوم من
الاصغاء لذلك اللسان وهو على ما هو من الفصاحة وطيب
الحديث . عرفت ان جميع حسناته المنطقية لم تكن لتعادل
سيئة واحدة فيه وهي — المبالغة

لذلك الكذاب من الاخوان بيننا ألف شاعر وكاتب

وخطيب

ولبقرة العجيبة ألف شبه من بقر القصائد والمقامات
والروايات التي حليها (رز بحليب بسكر وما زهر)
ناظم ' « في قلب أوروبا له ترديد » كذاب كمصنف
قصة البقرة ، هذا يجرب أن يقنعنا ويقنع علماء التشریح
بان الارز الذي كانت البقرة تأكله لم يكن ليسقط في معدتها
بل كان يتحول رأسا الى ضرعها وهناك يمتزج باللبن فتطبخها
حرارة الدم ؛ وذلك لايخجل أن يصف لنا حصانا لانور
اذا صهل في الاستانة رددت صدى صهيله وادى السين
في فرنسا وغابات هيدبارك في لندن ؛ أما الاول فلا يصني
اليه أحد ، وأما الثاني ، وبالله العجب العجائب ، فيتهافت عليه
الصحافيون لينعم عليهم بقصائده ويلتف حوله ألف رهط
ورهط من « شعراء » أمثاله يهنتونه بفوزه العظيم في معترك
الاوزان والقوافي ، ويحييه العوام في الاسواق هامسين
فيما ينهم - « هوذا الشاعر المجيد فلان »
اننا والله لنحار في السبب الذي جعل واضعي قواعد

الادب عندنا ان يحسبوا الكذب من أول شروط البلاغة
وهم أعلام الادب والعرفان

فان الآداب الدينية والمدنية تنهى عن الكذب
وان العقل السليم لا يقبله

وان لارقة فيه والرقعة من خصائص الشعر

وانه لا منطق يدعمه والمنطق ركن الشعر والنثر

وانه لا قبل له على النقد والتمحيص . وكلاهما من أول

أعمال الأدب

وان لا فلسفة فيه . والفلسفة روح الآداب على الاطلاق

وانه يظهر الامور بغير حقيقتها . وأقصى غايات

الادب الحقيقة

الكذب خداع — والادب صدق

الكذب عجز — والادب مقدرة

الكذب جبن — والادب بسالة

لو وقفت ومادح حصان أنور بحضرة مجلس أدبي

ليعطى كل منا حساباً عما قاله فهل أستطيع أن أدعم بشيء

من البرهان قولى فى قصيدتى السابقة — « لوفتدى حكم
الاله رايتنا » الخ . ألا يكون عندى فى تلك الدقيقة
السكوت من ذهب » ؟ وهل يتمكن رفيقى من اقناع
سائليه بكل ماله من الفصاحة والشهرة بامكانية ترديد
صهيل ذاك الحصان فى قلب أوروبا . أم يطرق صامتاً
ويؤمن بمرارة ان « حبل الكذب قصير » ؟

كلانا كذاب . كلانا قائل مالم يؤمن به عقله ولم يشعر
به قلبه . وشبيه بنا من قال .

« أمر بالحجر القاسى فآلمه لان قلبك قاس يشبه الحجر »

يريد الناظر ايها منا وايها م التى يدعى حبها بانه يقبل
الحجر البارد الاصم اكراما لمشابهته قلبها . هذه هى كذبة
فاضحة لاهي تصدقها ولا نحن ولا هو نفسه لانه لم يشعر
قط بعاطفة فى قلبه تدفعه لتقبيل الحجر . وكان كلامه
اوقع فى النفس لو اعترف بانه يأخذ مطرقة ويكسر بها
ذاك الحجر القاسى كقلبها تشفياً وحنقا

ثم ما هو الجمال فى تشبيه قساوة القلب بالحجر .

أفى ذلك رقة شعرية أم ضخامة حجرية ! وهلا كان
كلامه ادعى للتصديق وأقرب للشعور الرقيق لو قال
أمر بالزهر فواحا فآلثه لان قلبك زهر لثمه حظرا
لكن شعراءنا لا تستميلهم الرقة التى هى مجلى الضعف
ولا يستهويهم الا ما كان قويا صلبا ، هائلا كالجبل والصخر
والصحراء والبحر والجوزاء والدهر . ذلك لان حماسهم
الفطرية وفطرتهم العربية لا تطربان الا لصايل السيوف ،
وهتاف الالوف ، وصهيل الخيول ، وارتجاج الطبول ،
واكتساح المعالى واكتساب المكارم ، وتشيد المفاخر .
ولا ميل لهم ولا وقت ليلتفتوا الى أشواق وميول وشواعر
واهية كالظلال ، ضعيفة كتنفس الاطفال ، متحركة فى
أعماق القلب أو الى فكرة صغيرة ناقصة مبهمة تدب
فى خلايا الرأس ديبب العنكبوت فى كهف مظلم مقفر .
والآن ان لم يعجبكم الحجر فها كم الحديد
هاتوا المطارق ان قلب حبيبتي
أضحى حديداً فاضربوا الليلين لى

أو فأضرموا نار الصبابة حوله

بالنار ينسبك الحديد وينجلى

سكوت • سكوت لنصمت قليلا فقد طفح القلب
بالتذكارات المؤلمة وأمسى الكلام مرأً في الخلق • وحق
الاخلاص وحرمة الادب اننى كلما توغلت أفكارى في هذه
الانفاق السوداء الوعرة ينقبض قلبى وتضيق أنفاسى كأننى
مسجون فى بيت يحترق • وكلما حاولت الخروج عرض فى
وجهى الف حائط يسد على طريق الخلاص • وكلما أغلقت
ورائى مخرجا انفتح أمامى ألف مدخل يعيدنى الى غرف
اللميب والدخان • حديث الشجون لا ينقطع • التذكارات
المؤلمة لانهاية لها ، جروح النفس لا تندمل سريعا بجروح
اللحم ولربما ضاقت الفسحة المخصصة لهذه الاسطر فى
« السائح » عن وسعها ، لذلك سأدفن القسم الاخير منها فى
صدرى ولا أخرجها الا متى ضاق هذا الصدر المسكين
مرة أخرى ، سأحذف « داء الالفاظ » وأترك لكم مقالتي
مبتورة ، لكننى سأقدم لكم عوضا عنها ما هو أفضل منها ،

وأود أن تقابلوا بينه وبين من يشتهي أن يطرق قلب
حيبته بمطارق حديدية ، فاسمعوا هنا ما يقوله في رواية
« نوتردام دي بارى » كازيمودو المشوه الاحدب في قصيدة
يخاطب بها فتاة يعبدها لئلا يتركها تحب فتى آخر جميل الصورة
قميح النفس محبة عمياء

Jeune fille, le sapin n'est pas beau,
N'est pas beau comme le peuplier,
Mais il garde son feuillage l'hiver.
Hélas ! à quoi bon dire cela ?
Ce qui n'est pas beau a tort d'être ;
La beauté n'aime que la beauté,
Avril tourne le dos à Janvier.

وان لم يعجبكم هذا فهاكم رسالة طالعها في رواية
لفيكتوريا كروس الكاتبة الانكليزية من « برنار » الى
زوجته التي فرت مع رجل آخر يدعى « بلهام » تاركة في
بيتها طفلها الوحيدة التي لا تتجاوز بضعة أشهر من السن

Dear Lydia, - I have obtained a divorce against
you, as I believe this is the best and kindest thing to
do for you. Pelham can now marry you if he
chooses, and I hope he will. I say nothing of myself.
You, who always studied these things, will know

how bitterly I must have suffered. But I do not blame you altogether. I know there must have been fault on my side too. I blame myself terribly for having lost you. The child has died. There seems little to live for, but I still go on.

Yours,
Bernard.

أيها الكوييتيون والشويعرون ، أيها المتهوسون
الناطحو السحاب برؤوسهم الفارغة ، أيها المقلدون الكذبة ،
المفاخرون بحقارة أجدادهم ، المرتدون أطمار ماضيهم ،
المتلاهون بسخافة أمسهم ، سيروا سيروا على قواعد أدبكم
العقيمة الضخمة ، طالعوا المعلقات السبع و اشرحوها
وتبسطوا ادفنوا عقولكم المتضخمة في مقامات الحريرى
والزمنخشرى والشريشى ، استقوا من ينابيع البديع واستزيدوا
من « طرقت الباب حتى كل متنى » طرقوا القلوب الحديد
بمطارقكم الحديدية تغزلوا بالاضلفع والرعبوبة تباكوا على
الطلول الدوارس غوصوا على درر مجمع البحرين واجمعوا منها
العقود المسجعة كأمثال « فكشف عن سراويله وأشار الى
غرموله » . ولكن استحلفكم بكل عزيز أن تدفنوا تلك

الجواهر والدرر فى صدوركم فنحن لسنا بحاجة اليها ، لماذا .
تطرحون درركم قدام الخنازير ؛ اذا كتبتم مقالة حشوها
درر فلا تنشروها فى جريدة ، وان هبط الوحي عليكم
بقصيدة رنانة ساحرة فلا تتكرموا بها على مجلة أنتم قد
شبعتم من العلم والمعرفة فلا حاجة لكم للاستزادة ، لكن
هناك فئة من الحكم ودمكم قد مزق الجوع أحشاءها وأحرق
العطش قلوبها . تحننوا عليها يتحنن الله عليكم ، أفسحوا
لها الطريق لتبل أفئدتها ببلغة ، اتركوا جبران يحدثنا عن
« البنفسجة الطموحة » وعن « يوسف الفخرى » اخفضوا
تهاليلكم برهة فنسمعه ينشد فى سكون الليل « يا ليل العشاق
والشعراء والمنشدين » . قفوا قليلا ودعونا نراقب ميخائيل
نعيمه جاثيا يبتهل الى ربه — « واجعل اللهم قلبي واحة
تسقى القريب والغريب » خلوا هذه البلابل الفردة وأمثالها
تصدق على أغصانها ، اتركوا هذه النفوس الحرة الجبارة
تفكك عن نفوسكم الاسيرة سلاسل العبودية والظلام ،

دعوا هذه النسمات المنعشة تهب على وجه آدابكم ولغتكم
العلية المشرفة على الموت قبل أن يفوت الاوان . بقية
المروءة نستنجد فيكم . فضلات الشرف نستصرخ . ظل
للنخوة نسترحم . أسمعون : أترحمون ؟

والآن ها أنا أختم كلامي . ولكنني على أمل الحصول
على ما يرضى منكم بهذا الشأن سأجعل ختامى حاويا من
الالفاظ ما يلد لكم ويطيب . ولا أراكم الا شاكرين لى
هذه المهمة ومراعين عواطفى فى المستقبل كمراعاتى
عواطفكم فى الحاضر

كان أحدهم يذكر شعر صنى الدين الحلى ويقول ان
لا عيب فيه سوى قلة استعمال الالفاظ الغريبة . فأرسل
صنى الدين الحلى اليه بهذه الايات

انما الحيزبون والدرديس

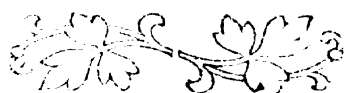
والطخا والنقاخ والعلطيس

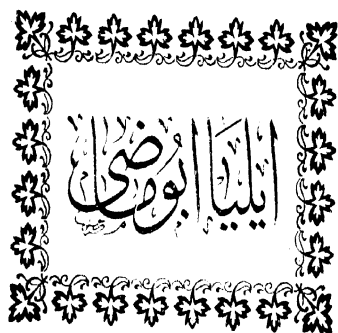
والحراجيج والشقحطب والعو

قب والعنقفيز والعنتريس

والغطاريس والعقنفس والعفس
لمق والجربضيض والعيطوموس
والسبتى والحقص والهيق واله
جسرش والطرقسان والعسطوس
لغة تنفر المسامع منها
حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الو
حشى منها ويترك المأنوس
لم نجد شادنا يغنى « قفا به
لك على العود اذ تدار الكؤوس
لاولامن شدا « أقيموا بني أمي »
اذا ما أدبرت الخندريس
خل للاصمى جوب الفيافي
في نشاف تخف فيه الرؤوس
وسؤال الاعراب عن صيغة الله
ظ اذا أشكلت عليه الاسوس

درست تلکم اللغات وأُمسی
مذهب الناس ما يقول الرئيس
انما هذه القلوب حديد
واطيف الالفاظ مغناطيس





نحن

كم خفضنا الجناح للجاهلين
وعذرناهم فما عذرونا
خبروهم ، يا أيها العاقلونا ،
انما نحن معشر الشعراء
يتجلى سر النبوة فينا
ذكروهم ، قرب خير كبير
فعلته الهداة بالتذكير
انما الناس من تراب ونور
فبنوا النور يعبدون النور
وبنوا الطين يعبدون الطين
قيل عنا : قصورنا من هباء
تتلاشى في ضحوة ومساء

أوسطور بالماء فوق الماء
لو سكنتم قصورنا بعض ساعة
لنسيتم شهوركم والسنينا
لو دخلتم هياكل الالهام
وسبحتم في عالم الاحلام
واجتليتم سر الخيال السامى
وعرفتم كما عرفنا الله
لخررتم أمامنا ساجدين

ابنة الفجر

ان أنا أغمض الحمام جفونى
ودوى صوت مصرعى فى المدينة
وتمشى فى الارض داراً فداراً
فسمعت دويه ورنينه

لا تصيحى واحسرتاه لئلا
يدرك السامعون ماتضمرينه
واذا زرتنى وأبصرت وجهى
قد محاموت شكه ويقينه
ورأيت الصحاب جاثين حولى
يندبون الفتى الذى تعرفينه
وتعالى العويل حولك ممن
مارسوه وأصبحوا يحسنونه
لا تشقى على ثوبك حزنا
لا ولا تذرفى الدموع السخينة
غالبى اليأس واجلسى عند نعشى
بسكون انى أحب السكينة
ان للصمت فى الماتم معنى
تتعزى به النفوس الحزينة
ولقول المذال عنك « بخيل »
هو خير من قولهم « مسكينه »

وإذا خفت أن يثور بك الوجد
فتبدد أسرارنا المكنونه
فارجمي وأسكبي دموعك سرّاً
وامسحي باليدن ماتسكبينه

*

يا إلهة الفجر من أحبك ميت
ولانت بمثل هذا رهينه
زایل النور مقلتيه وغابت
تحت أجفانه المعاني المبينه
فاصیخی هل تسمعين خفوقاً
كنت قبلاً في صدره تسمعيه ؟
وانظري ثم فكري كيف أمسى
ليس يدري عدوه وخدينه
ساكتا لا يقول شيئاً ولا يسمع
شيئاً وليس يبصر دونه

لا يبالى أأودعوه الثرىاً
أم رموه في حمأة مسنونه
واذا الحارسان ناما عياء
ورأيت أصحابه يتركونه
فتعالى وقلبي شفتيه
ويديه وشعره وجبينه
قبل أن يُسدل الحجاب عليه
ويوارى عنك فلا تبصرينه
واحذري ان تراك عين رقيب
ولئن كان حل ما يحذرينه
فاذا ما أمنت لا تتركه
قبلما يفتح الصباح جفونه
* *
واذا الساعة الرهيبة حانت
ورأيت حراسه يحملونه

وسمعت الناقوس يقرع حزناً
فبرد الوادى عليه أنينه
زودى الراحل الذى مات وجداً
بالذى زود الغريب السفينه
نظرة تعلم السموات منها
انه مات عن فتاة أمينه



طوت الارض من طوى الارض حيا
وعلاه من كان بالامس دونه
واختفى فى التراب وجه صبيح
وفؤاد حر ونفس مصونه
فاذا ما وقفت عند السواقى
وذكرت وقوفه وسكونه
حيث أقسمت ان تدومى على العهد
وآلى بانه لن يخونه

حيث علمته القريض فامسى
يتغنى كى تسمى تلحينه
فاذكريه مع البروق السوارى
واندييه مع الغيوث الهتونه
واذا مامشيت فى الروض يوما
ووطأت سهوله وحزونه
وذكرت مواقف الوجد فيه
عند ما كنت بالهوى تغرينه

حيث علمته الفتون فاضحى
يحسب الارض كلها مفتونه
حيث وسدته يمينك حتى
كاد ينسى شماله ويمينه
حيث كنت وكان يسقيك طورا
من هواه وتارة تسقينه
حيث حاك الربيع للروض ثوبا
كان أحلى لديه لو ترتدينه

فالتمنى كل زهرة فيه انى
كنت أهوى أزهاره وغصونه

ثم قولى للطير مات حبيبي
فماذا ياطير لا تبكيه ؟

*
* *

واذا ما جلست وحدك فى الليل
وهاجت بك الشجون الدفينه

ورأيت الغيوم تركض نحو الغر
ب ركضاً كأنها مجنونه

ولحظت من الكواكب صدا
ونفارا ، وفى النسيم خشونه

فغضبت على الليالى البواقى
وحسنت الى الليالى الثمينه

فاهجرى المخدع الجميل وزورى
ذلك القبر ثم حي قطينه

وانثرى الورد حوله وعليه
واغرسى عند قلبه ياسمينه

فلسفة الحياة

أيها ذا الشاكي وما بك داء
كيف تغدوا اذا غدوت عليلا
ان شر الجناة في الارض نفس
تتوقى قبل الرحيل الرحىلا
وترى الشوك في الورود وتعمي
ان ترى فوقها الندى إكلىلا
هو عبء على الحياة ثقيل
من يظن الحياة عبئا ثقيلا
والذي نفسه بغير جمال
لا يرى في الوجود شيئا جميلا

ليس أشقى ممن يرى العيش مرّاً
ويظن اللذات فيها فضولا
أحكم الناس في الحياة أناس
عللوها فأحسنوا التعليلا
فتمتع بالصبح ما دمت فيه
لا تخف أن يزول حتى يزولا
وإذا ما أظل رأسك همّ
قصر البحث فيه كيلا يطولا
أدركت كنهها طيور الروابي
فمن العار أن نظل جهولا
ماتراها — والحقل ملك سواها
تخذت فيه مسرحا ومقيلا
تتغنى ، والصقر قد ملك الجو
عليها والصائدون السبيلا
تتغنى ، وقد رأت بعضها يؤخذ
لـ والبعض يقضى قتिला

تتغنى ، وعمرها بعض عام
أفتبكي وقد تعيش طويلا ؟

فهي فوق الغصون في الفجر تتلو
سور الوجد والهوى ترتيلا
وهي طوراً على الثرى واقعات
تلقط الحب أو تجر الذيولا
كلما أمسى الغصون سكون

صفقت للغصون حيث تميلا

فاذا ذهب الاصيل الروابي
وقفت فوقها تناجي الاصيلا

فاطلب اللهو مثما تطلب الاط
يار عند الهجير ظلا ظليلا

وتعلم حب الطبيعة منها
واترك القال للورى والقيلا

فالذى يتقي العواذل يلقى
كل حين في كل شخص عدولا

كن هزاداً في عشه يتغنى
ومع الكبل لايبالى الكبولاً
لاغراباً يطارد الدود فى الا
رض وبوما فى الليل يبكى الطلولاً

*
* *

كن غديراً يسير فى الارض
رقراقاً فيسقى من جانبيه الحقولاً
تستحم النجوم فيه ويلقى
كل شخص وكل شيء مثيلاً
لا وعاء يقيد الماء حتى
تستحيل المياه فيه وحولاً

*
* *

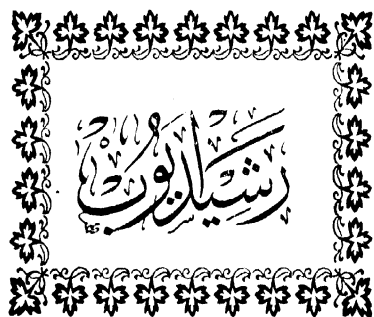
كن مع الفجر نسمة توسع الا
زهار شاماً وتارة تقبلاً

لاسموما من السواقى اللواتى
تملاً الارض فى الظلام عويلا
ومع الليل كوكباً يؤنس الغا
بات والنهر والربى والسهولا
لادجى يكره العوالم والنا
س فيلقى على الجميع سدولا

*
* *

أيها ذا الشاكى وما بك داء
كن جميلاً تر الوجود جميلاً





أنفس الشعراء

لما بدا البرق في الظلماء ملتهباً
وراح يطوى فضاء الله واحتجبا
ناديت ربي وطرفي يرقب الشهباً
رباه يا خالق الاكوان واعجبا
كم تشبه البرق هذا أنفوس الشعراء
يا ليل مهلاً ولا تشفق على بصرى
فما تعودت فيك النوم من صغرى
يا ليل. هما تطل لا بد من سهرى
حتى يودع طرفي نجمة السحر
تلك التي عشقتها أنفوس الشعراء
دعه يغيب بلج الكاس أدمعه
فقد تذكر نائي الدار أربعه
وهات عودك واضربه لسمعته
اكن توق رعاك الله أضلعه
تلك الاضالع فيها أنفوس الشعراء

ياسا كنى سفتح صنين وكم سفتح
ت للصب عين لبلوا كم وما برحت
كأنه نازح عنكم وما نرحت
نفس له لسواكم قط ما جنحت
لا والذي عبدته أنفس الشعرا
سل الكمنجة معنى انة الوتر
والريح ان هينمت سلها عن الخبر
والطيران بكرت تشدو على الشجر
سلها وسل كل روض زاهر عطر
تجيبك يا صاح هذى أنفس الشعرا
يا هائمًا بابنة العنقود تطربه
منها الحميا وفعل الراح يحسبه
أستغفر الله مما بت تنسبه
للراح ان الذى فى الكاس تشربه
يا صاحبي رشحته أنفس الشعرا

طوباكياسا كنافى الغابات تؤنسه

الاهة الشعر والاشباح تحرسه

يضم كل لطيف الروح مجلسه

ملائكة من صفا الايام اكؤسه

وحوله تتغنى أنفس الشعرا

لله «ناى» سبتنا روح صاحبه

حتى وقفنا حيارى عند واجبه

فصحت والليل زاه من كواكبه

يانافخ الناي يحدو فى مواكبه

بنغمة الناي هامت أنفس الشعرا

يانسمة فى مروج الحب نافخة

حيث الحمام لاتنفك نائحة

ناشدتك الله ان با كرت سائحة

عند السواقى بجو الروح سابحة

فهينمى تترنح أنفس الشعرا

الربيع

مرحباً ذنباً اشتياقاً ياربيع
ياخفيف الروح أهلاً مرحباً
كلما ضاء محياك البديع
هبت الأرض تباهى الكوكبا
ومشى فى سفح أضلاعى صريع
مات لولا ذكر أيام الصبا
عجباً تمضى زماناً وتعود
وربى قد مضى لم يرجع
من ترى أنباك أسرار الخلود
فتوقيت الردى لم تصرع

*
* *

أم هى الأرض التى تبغى البقا
عرفت كيف البقا بالاعتقاد
فأبت عن حكمة ان تنفقا
مالديها حسناً حتى المعاد

واكتست ثوب بهاء مورقا
ماله ما دامت الدنيا نفاذ
ياله ثوبا موشى بالورود
كل عام يرتدى لم ينزع
حبذا لو كان لى منه برود
كنت أرويهها اذن من أدمعى

*
* *

ما أحلى وجهك الصافى الجميل
رصعته بالندى أيدى الدهور
رب نفس سجن دهر أطويل
مثلا يسجن مصداح الطيور
أصبحت مطلوقة بعد الكبول
تغتذى ربح الموائى والصخور
فهي لم تخلق اترى بالقيود
لا ولا قد صنعت للبرقع

عجباً في هذه الدنيا النقود

حجبت احدى النجوم اللمع

يا ربيع الارض يا نعم الدوا

لنفوس مالها الا الهموم

حيثما تنشر منها ما انطوى

وتذريه اذا مر النسيم

ويح اهل العشق ارباب الهوى

خلقوا في الكون كي يرعوا النجوم

قسمت ارزاقهم قبل المهود

وقفوا في كل دار بلقع

حفظوا للناس في الدنيا العهود

انما حفظهم لم ينفع

*
* *

عطري يازهر اذ يال الرياح

ان سرت فوق الرياض القشب

أودعيها كلما لاح الصباح
أرجا يغنى به عن كتي

غربة أمست حياتي وانتزاح
ومناجاة ورعى الشهب

فاذا ما لاح للصبح عمود
بعد ليل كغراب أبقع

قلت في نفسي وللنوم محدود
أوحى غربة في مضجعي



إنا لولا ذكر أيام الصبا
قلت يا نفسي إذا شئت اذهبي

غير أنني كلما هبت صبا
أنعشت قلبي بذكر طيب

لا أبالي إن حلت المغرب
طالما شمس المنى لم تغرب

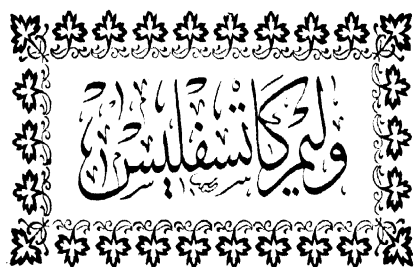
فحياة المرء في هذا الوجود
رغبة النفس وعت أو لم تعى
وبكائي للأولى طى اللحد
كعزائي بالأولى باتوا معي

الدرويش

دعته الامانى نغلى الربوع
وسار وفي النفس شيء كثير
وفي الصدر بين حنايا الضلوع
لنيل الامانى فؤاد كبير
نحت المطايا وخاض البحار
ومرت ليال وكرت سنون
ولم يرجع
وألقى عصاه وحط الرحال
بأرض الاشوش والاشبل

ثم عليه فعال الرجال
كما نمت الريح بالمنديل
وراح يغنى بصفو الزمان
غناء البلابل فوق الغصون
على مسمعى
فرت سعود ، وجاءت نحوس
(وقد نصل الدهر صبغ الشباب)
فعلل نفساً رمتها البؤوس
بيجر هموم علاه الضباب :
أيا نفس ، صبراً لحكم القضا !
ويا نفس مهما دهتك الشجون
فلا تجزعى !
فما بال نفسى بنت الخلود
تخاف الخلود وتأبى الذهاب !
وقلبى الخفوق عراه الجمود
أيخشى التراب ابن هذا التراب !

وبات المسافر في حيرة
بمعنى الحياة وسر المنون
ولم يجمع
أيا حيرة الحى ، أين الطريق ؟
فانى ضللت عن المنزل
لقد كان لى فى حماكم رفيق
من المهد فى الزمن الاول
فغضوا العيون وفيها الدموع
فخار فؤادى بتلك العيون
وفى الادمع
وقالوا : رأينا شريداً يَجول
بعيداً عن الناس فى معزل
يبيت الليالى يؤم الطلول
ويبكى على عهده الاول
فقلنا : دعوه عراه جنو
ن ومرت ايام وكرت سنون
ولم يرجع



البترون * سنة ٢٥٢٠ م

شهر ايار أو نوار كما يسميه العامة في سوريا هو أجمل أشهر السنة وأكثرها رونقاً وزهاءً في كل أقطار العالم وبنوع خاص في سوريا ، حيث تظهر الطبيعة بأبهى رداء ، وأصفى سماء وأعذب هواء ، إذ ينتشر عبير الازهار مائلاً الفضاء عطراً ، والعين سروراً والصدر انشراحاً ، هناك يعانق الشاطئ الأخضر البحر الأزرق كما يعانق الحبيب الحبيبة وكأنى به يفاخر سائر الشواطئ والمدائن بجمال حبيبه قائلاً : « من له مثل هذا البحر الفتان »

هناك — بين تلك الهضاب والرياض — بين أريج الياسمين والمنثور وبخار المياه إذ تلطم الصخور فتتصاعد في الفضاء كاللؤلؤ المنثور ، هناك عند أقدام الجبال المزنة بأشجار الشربين والارز في شهر ايار من سنة ٢٥٢٠ كنت ترى الجماهير من الناس قد ملأت الطرقات والفضاء كلها متجهة نحو بناية هائلة في جوار البترون ، من القوم من جاء

من مصر وفلسطين ودمشق ومهم من العراق وحلب وحماه
وحمص وطرابلس وغيرها من مدائن سوريا في المناطق
السريعة التي تمر في الجو مر البرق وفي النقلات العمومية
المرتفعة عن الارض نحو مائتي ذراع والتي تسير على دولا ب
واحد فوق شريط من الفولاذ بسرعة المناطق تقريباً ،
ومنهم وهم الفقراء من جاءوا من الاماكن القريبة في سيارات
عظيمة الحجم من طراز النقلات القديمة العهد

قلت ان هذه الجماهير كانت متجهة نحو بناية عظيمة
في جوار البترون ذلك لسماع محاضرة الاستاذ محمد جمال العلم
الزهاوى . فالمحاضرات العمومية التي تقام على نفقة حكومة
العالم المتحد تجرى في تلك البناية في شهر ايار وفي دمشق
في شهر آب وفي القاهرة في كانون الثاني هذا لانباء اللغة
العربية الخالدة .

أما البناية التي مر ذكرها فهي كناية عن قاعة مستديرة
مساحة دائرتها لاتنقص عن الميل . مقاعدها مرتفع أحدها
عن الآخر بحيث يرى الجالس في أرفع المقاعد ما يراه في

أوطاها. جدرانها من زجاج وسقفها من الالومنيوم ومنصة
الخطابة أو المنبر في صدرها . على ان بناءها محكم هندسياً
بنوع أن يسمع الصوت في أقصى المقاعد عن المتكلم بجلاء
ووضوح كما يسمع في أقربها اليه وهذا فوز كبير
للهندسة الحديثة في البناء وتحسين شروط السماع أو
الا كوستيك .

الاستاذ محمد جمال العلم الزهاوى هو من صنف
المرشدين . اذ لا يخفى ان جماعة العلماء العمال ممن نالوا أ كثرية
الاصوات لاجتهادهم وتفوقهم يقسمون الى ثلاثة أصناف
أو أقسام : المجربون وهم الذين يعملون في البحث والتنقيب
والاختبار والاكتشاف والاستنباط .

والمصنفون وهم الذين يؤلفون الكتب وينشئون المقالات
فينشرون بين الورى نتائج الاعمال .
والمرشدون وهم الذين يخصصون قسماً من أوقاتهم
للخطابة والمحاضرات

وكان الاستاذ محمد من هؤلاء وقد اشتهر بين المتكلمين
بالعربية بالفصاحة مع توقد الذهن وملاحة الاسلوب فضلاً
عن وافر علمه وسعة معارفه .

فلما احتشد الناس في القاعة وامتلات المقاعد والقوم
بين حديث وضحك ولعب وهرج ومرج إذ ظهر نور أحمر
في وسط القاعة من جهة السقف وكان هذا النور لوحاً
كبيراً ظهرت عليه كتابة بالكهربائية مألها : « فتحت
الجلسة فعليكم بالسكون والسكوت » .

وما كادت تظهر هذه الكتابة حتى عم السكون
فكان القاعة خاوية خالية لا يسمع فيها سوى نبضات قلوب
الالوف المجتمعة من رجال ونساء . إذذاك انتصبت رئيسة
الجامعة القحطانية المرشدة استير ليفي وقالت « سادتي :
إن الوقت المخصص لهذا الاجتماع ساعتان كما تعلمون
فالبرنامج هو هذا : موسيقى آلية ثلاث دقائق . ثم نشيد
جوق الجامعة للفتيات . ثم محاضرة الاستاذ المرشد محمد جمال
العلم وموضوعها « الجيل العشرون » يتلو ذلك نشيد جوق

الجامعة النابلسية للفتيان وتختتم الجلسة بقرار مشتشار المعارف
الاديب لخائيل البناء عن أهم أعمال الحول . أشكركم . »
فلما جلست الرئيسة ظهر على المنصة الالاتيون فلعبوا
نغما لطيفاً قصيراً كي لا يمل الناس . ثم عدد من الفتيات
فأنشدن نشيداً متقناً مطرباً وهى قصيدة قديمة جداً لشاعر
عاش فى الجيل العشرين كان يسكن القارة الاميركية وينظم
فى العربية ومن الغريب أن شعره راق رقيق خال من
الحشو المبذل بالرغم من وجوده فى ذلك الجيل المظلم المتوحش
ثم انتصب الاستاذ محمد وإليكم خطابه قال :
« سادتى !

كنت أطلع من عهد قريب بمجموعة خطب ومحاضرات
لناس مختلفين فى الجيل العشرين وقد استلقت نظرى فى
أكثرها ان الخطباء فى ذلك الجيل كانوا يخصصون ثلث
كلامهم لاطراء الحضور بالمبالغة السخيفة واطراء أنفسهم
بذكر عجزهم وقصورهم وهو أسلوب مبتذل لآفات الانظار
الى مقدرتهم والثالث الثانى لحشو الكلام الرنان المصنوف

صفًا والمركب تركيبًا : مبنى دون معنى . ما يثبت انهم كانوا يرتاحون الى هذا النوع من الثروة التي لا فائدة منها والتي لا ندل الا على شيء واحد وهو عناية الكاتب أو الخطيب بالتفتيش عن الكلمات والجمال التي تروق له وجمعها مترادفة سواء كانت لازمة أو لم تكن والنثالث الآخر لموضوع المحاضرة أو الخطاب .

لا أخالني يأسادة راجعًا بكم الى تلك العصور المتأخرة اما اطراؤكم فلا حاجة لي اليه لانكم أدرى بأنفسكم منى وقد تكونون الى الانتقاد أحوج منكم الى المدح . وأما الاقرار بعجزى فأخشى أن يحمل محمل الكذب اذ لولا أهليتي لما كنت حيث أنا بالتصويت الشعبي والانتخاب . وهنا تبدو لي ملاحظة أخرى غير مختصة بخطبائهم فهي تشمل أيضًا كتابهم وشعراءهم الا النذر القليل من السابقين المولدين وهو التشابه العظيم في أقوالهم حتى ان أكثرهم كان يردد عبارات وجملا واحدة وينهج الاسلوب عينه الذي ينهجه سواه وهذا يدل على أمرين : اما أن

المواصلات لم تكن موجودة البتة فلم يدرك أحدهم بما كتب الآخر وهذا مردود تاريخياً ومنطيقياً اذ لا يعقل تكرار تواردها لخواطر حتى في اللفظ . وأما انهم كانوا اسفين في قيود التقليد العقيم والسرقة الأدبية وهذا الاصح . وقد قال الاستاذ المجرب حسين النافعي في كتابه الجليل : « تأثير الاديان في العصور المظلمة . » ما معناه :

« أما كون أبناء اللغة العربية أكثر استسلاماً للتقليد من معاصريهم فلا سبب كثيرة . أهمها تأثير الاديان عليهم فالاديان كما كانوا يفهمونها في تلك الايام المحزنة كانت شديدة التحفظ بحرفية تعاليمها لا تتراح الى البحث وتحرم الجدل . عدوة الاستقلال وحرية العقول . وقد رسخت تعاليمها المشوهة بالتفسير والتأويل في قلوب الشرقيين ونفوسهم رسوخ المرض العضال في الجسم النحيل انما الفرق بينهم وبين المريض هو ان المريض يكره علته ويسعى للتخلص منها أما هم فكانوا شديدي التمسك بعلمهم يتعصبون لها ويناضلون من رام مداواتهم وابراءهم منها .

ولذلك ولما كانت أديانهم مقلدة ومحافضة نشأوا على التقليد والخوف من كل جديد وان كان فيه التقدم والاصلاح .
ومن الاسباب أيضاً ذلهم وعدم معرفتهم الحياة الحرة المنطلقة من القيود كما يعرفها العالم اليوم فبينما كانت الامم من حولهم نائلة بعض الاستقلال يومئذ كانوا هم مستعبدين لسواهم وقد ألفوا تلك الحالة فقتلت فيهم العبودية قوة التوليد والاستنباط . أضف الى ذلك الجهل فقد كانوا . إلا الافراد . قليلي البضاعة العلمية يجهلون لغات المعاصرين وآدابهم مما ضيق عليهم المسالك اه .

هذه جملة من هذا الكتاب النفيس وإني أنصح لكم أن تقرأوه إذا سمح لكم الوقت لانه كبير الفائدة ثمين البحث في عوامل النفس وثوران العواطف إذا هي ضلت السبيل وتمردت على ارشاد العقل .

من الغريب أن الناس في تلك العصور كانوا يتوهمون أنهم بلغوا شأواً كبيراً من التمدن والرقى مع أن آثارهم تدل على انحطاط وتأخر . أجل أنهم وضعوا أساسات الاختراعات

والاكتشافات التي حسنها من جاء بعدهم وصلت الى الدرجة التي تتمتعون اليوم بثمارها . وأن بعضهم كانوا قد بدأوا يذكرون الحقائق الكبرى ولكن هؤلاء هم الافراد القلائل أما الاكثرية فكانت تهزأ وتعاليمهم وكثيراً ما كانت تضطهدهم

من ذلك ان المذاهب الفلسفية التي تعرف اليوم باسمائها القديمة كانت تدعى عندهم أديانا أي انهم كانوا يعتبرونها شرائع منزلة من السماء يجب عليهم اتباعها بالحرف والمناضلة عنها ومحاولة اقناع الآخرين بصحتها . واكراههم على اعتناقها اذا تسنى لهم ذلك . فكان اتباع المسيح وهم الاكثرية ولهم الصولة والحوّل كثيراً ما يضطهدون المتمذهبين بمذهب موسى أو اليهود وفي بلادنا الشرقية كان المسامون يحتقرون النصارى وينبذونهم وأحياناً يفتكون بهم وهم أبناء جنس واحد وبلاد واحدة ولغة واحدة لغير سبب الا الاختلاف في المذهب الفلسفي ولم تك « الوطنية » تلك الآفة التي سفكت باسمها دماء

كثيرة ، أقوى من العاطفة الدينية الا في بعض الدول
التي كانت تدعى التفوق وتفاخر بكونها جعلت الوطنية
فوق الدين .

آواه يا سادتي . كم كانت الانسانية تشقى في تلك الايام
السوداء وما أسعدنا لوجودنا في عصر أصبحت فيه تلك
العقائد البربرية آثاراً تاريخية بدلاً من أن تكون آفات حقيقية
تحرمننا السعادة وتورثنا الشقاء والبلاء .

قلت أن بعض الدول التي كانت تدعى التفوق وضعت
الوطنية فوق الدين أى أنها هربت من الدلف إلى تحت
المزاب . فبدلاً من أن تنجر باسم الدين صارت تنجر باسم
الوطنية بطريقة أعم . وليس هذا فقط بل تبرر عملها وتقدهه
باسم الوطن . كلمة كان معناها ملتبساً على الناس يأولونها كما
تشاء أغراضهم أو ميولهم البربرية . فكان ضمير الانسانية
كان مائتاً أو متخدراً أو كأن . شيطان العالم لما فرغت يده
من سلاح الدين اخترع سلاح الوطنية لتظل الانسانية
راسفة في قيوده تحت قدميه

في الجيل العشرين ظهر في البلاد الروسية مذهب البلشفة الذي هو أقرب الى الاخاء العمومي الذي يتمتع العالم به الآن من كل مذهب تقدمه ، ولكنه لم يلبث طويلا حتى مات . ذلك لانه أخطأ استعمال الوسائل . فامتطى سيف الظلم لآبادة الظلم . وفي قبضة السيف عدوى تسربت الى جسمه فنخرت عظمه وأخطأ أيضاً بالتسرع إذ حاول أن يهدم في عام ما بناه العالم في مليون عام فكان نصيبه مثل نصيب أسلافه الكوميونسم والسان سيمونسم الخ . على أنه لم يندثر تماماً اذ ترك آثاراً في عقول المفكرين الذين فحصوه وعرفوا مواضع الضعف فيه فنبذوها واقتبسوا منه ما كان مفيداً ومطابقاً لحاجات الانسانية فصارت العقول تتمخض به جيلاً بعد جيل حتي ولدته كاملاً .

أتدرون يا سادتي أن الشعوب القاصرة في أيامنا هذه التي هي تحت وصاية اخوانها ممن هم أدري منها هي بالحققيقة أرقى مما كانت أمم الجيل العشرين جميعها ؟ قد تستغربون هذا القول ولكنه حقيقة راهنة فشعوب أواسط أفريقيا

مثلا لم تصل الى ما وصلنا اليه من المعارف والتسلط على العناصر ولكنها راغبة في الاستفادة ساعية للتعلم راضية بوصايتنا مخدة الى السكون والمحافظة على الشرائع العمومية بينما في الجيل العشرين وفي بلادنا هذه عينها ثارت ثورات القوم وهدرت الدماء لانتداب فرنسا الوصاية عليهم مع أن فرنسا كانت أرقى أمم تلك العصور وما ذلك إلا لان أغلب سكان سوريا كانوا من المحمديين فرغبوا عن فرنسا لا لذنوب ارتكبتها أولقصور أظهرته بل لانها على غير مذهبهم الفلسفي الذي كانوا يسمونه ديناً كما ذكرت لكم سابقاً

تلك كانت حالتهم في أديانهم جهل مطبق يقوده علم فاسد . فعامة الناس كانت جاهلة كنه الدين وزعماء الدين من كهان وشيوخ كانوا يضرمون فيهم عاطفة التعصب لمذاهبهم والبغضاء لمن كان خارجاً عنها ليظلموا في زعامتهم راتعين وفي رقاب العامة مالكين . فلو تركوهم وشأنهم لاهتدوا إلى السبيل وأدركوا شريعاً كما أدرك من خلفهم على الارض أن الدين هو الاخلاق والاعمال فان تساوت

فى الناس بالرقى كانوا من دين واحد ومذهب واحد وما
دون ذلك باطل والباطل عدو الخالق وآفة المخلوق
قلت أن ذلك الجيل الذى نسميه مظالم لم يخل من
بعض المحاسن . فقد شهد تقدم الكهرباء تقدم ما يذكر وان
كانوا لم يتوصلوا إلى الانتفاع منها كما هى الحالة الآن .
وشهد أيضاً مولد المنطاد . واختراع المواد الانفجارية
التي كانوا ابربرتهم يستعملونها فى الحروب للقتل والتدمير
فاصبحنا وقد حسنناها نستعملها كقوة محرّكة أوجدت
العجائب . وفى ذلك العصر بدأ العلماء والجراحون يدركون
فوائد التطعيم البشرى ونقل الدم والغدد والسكره ظل
فى المهد حتى جاء الجيل الذى بعده فتقدم ولم يبلغ تمام
نفعه إلا فى الجيل الثانى والعشرين . وحسنوا قليلا فى الاشعة
الخارقة التي كانوا يسمونها أشعة رنتجن نسبة الى مكتشفها
واخترعوا الغواصات ولكنهم لم يتوصلوا إلى استخراج
الراديو من الهواء وحصر قوته الهائلة فكل هذه
الاختراعات والاكتشافات كانت لا تزال فى المهد لم ينجوا

كل فوائدها . فكانت الامراض منتشرة انتشاراً كبيراً
والناس يموتون بالاجوع والالام بدلا من أن ينطفئوا
بهدهو وبلا ألم كما هي الحالة الآن بفضل الاشعة الخارقة التي
صرنا بواسطتها نستطيع أن نرى ما في داخل الجسم كما نرى ما في
خارجة والاشعة البنفسجية والاشعة الزرقاء واستخدام الراديوم
للتطعيم بالغدد الحية التي تصلح ما فسد من دم الانسان وتجدد
فيه مادة الحياة وغير ذلك من الامور التي يطول شرحها
وهناك سبب آخر لكثرة أوجاعهم وقتلها بيننا وهو
أنهم كانوا يفرطون في الاكل والشرب فيحملون دماءهم
سموماً من الماء كولات لم تقو معدتهم على هضمها كلها ومن
المشروبات الروحية السامة . بينما نحن الآن نكتفي بالاشياء
المغذية السريعة الهضم كالخضر والفواكه والالبان ونشرب
علاوة على الماء الاكسير الذي هو عصير الفواكه لا تزيد فيه كمية
الكحول عن الاثنين في المائة . ولا نأكل اللحوم كما كانوا
يفعلون ففي بعض الخضر كالعدس والفاصوليا وفي اللبن والجبن
ما يغني عن المادة الغذائية في اللحوم وعن سمومها أيضاً .

فبينما كان معدل التعمير في عصرهم من الخمسين الى السبعين
وكان عدد الذين يموتون قبل الاربعين يعادل الثلث نرى اليوم
أن معدل التعمير أصبح فوق المائة وأن الذين يموتون قبل
السبعين لا يعدلون واحداً من مائة وأكثرهم يموتون من
حوادث طارئة غير منتظرة

انظروا إلى البعد الشاسع بيننا وبينهم . انظروا إلى
البناء الفخم الذى شيدناه على الاساس الضعيف الذى
تركوه لنا . انظروا كيف اننا نستخدم العناصر كما نشاء
فنحول مجارى الاهوية ونلجم العواصف ونستنزل الامطار
ونقطع المسافات الشاسعة ببضع ساعات مما لم يحلموا به .
ان ضغط الهواء ، تلك القوة الهائلة ، كانت عندهم بابا مغلقاً
إلا فى بعض الصغائر فجعلنا منها قوة تهز الارض هزاً .
وأوجدنا الشروط الجوية والطقسية الملائمة ضمن جدران
نقالاتنا فسخرنا بالسرعة وصرنا نجتاز من الخمسمائة إلى
الآف ميل فى الساعة دون خطراً أو انزعاج .

كل هذا ياسادتى ، كل هذه التحسينات المفيدة وغيرها

مما لا يساعدننى الوقت لذكرها ثم بفضل الاخاء العمومى
وتوحيد الشرائع فى الارض مع توحيد العملة وتحديد
مفعولها ومنع الاحتكار وقتل عاطفة الطمع فى نفوس البشر
مما أبطل الشحناء والحروب ولولا ذلك لكننا اليوم متأخرين
متوحشين هائمين فى همجيتنا كما كان الناس فى الجيل العشرين
ولارىب عندى أن أولادنا سيزيدون على أفعالنا حتى يبلغ
العالم من الكمال الدرجة التى نواها له الاله الذى هو الكل
والكل هو الاله . أشكركم لاصغائكم

اجعلوا الحلم جميلا

هى حلم ينقضى بين ليلة وضحاها ، زهرة تتفتح مع
الفجر أوراقها وتذبل مع المغيب ، معشوقة لا تكاد تمنح
قبلة اللقاء حتى تذرف دمة الوداع ، هى الحياة بخمرها وخلها
بأفراحها وأوزارها تمر فى فضاء الكون كنور سريع ضئيل

— فاجعلوا الحلم جميلا —

روحوا النفس فالسبيل ضيق وقصير ، إذا نثرنا فوقه
الازهار ربما هان المسير ومن الجنون أن تؤثر العسير على
اليسير ، ومن الجحود أن نهمل كنوز النفس وهى عطايا
الاله فالعيش حلم والحلم كما نريده يكون

— فاجعلوا الحلم جميلا —

زهرة الحقل تنبت فلا تسائل لماذا ، ولا تحسد نضارة
الوردة وجمالها متألمة لانها ليست مثلها محبوبة ، ولا نكيد لها
المكايد لاتلافها ، زهرة الحقل قاعة بنصيبها وحالها فاقتدوا بها

— واجعلوا الحلم جميلا —

مادة وروح ، قذارة والرهية ، فالجسم هيكل من
طين الآلهة هى النفس ، وليس بالجسد بل بالنفس السعادة
تناسوا الجسد وحدوده ، تناسوا السجن الذى يقيد
لانهاية النفس

— واجعلوا الحلم جميلا —

جسمك لا يطير إذ ليس له جناح ، أما عقلك فطائر
لاتجاره الرياح ، ، فاتركوا الضعف وتمسكوا بالقوة التي
هي من السماء واعلوا بنفوسكم فوق سجونها لتذوقوا الهناء
حياة المرء حلم والافكار مولدة

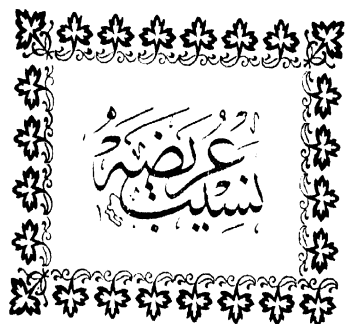
— فاجعلوا الحلم جميلا —

ما عمر الا كوان إلا المحبة ، والقلب إن لم يسع الدنيا
فهو وعاء صغير ، وأن لم يفهم انغام الكائنات فهو أوتار ميتة
لاتحركها أغاني الارواح المتأخية فليحدث كل جرح
في قلوبكم جرحا

— واجعلوا الحلم جميلا —

وعندما ينضب زيت السراج فيعود نوره من حيث
أتي ويعود طينه إلى ترابه وتفلت النفس من قيود الاديم
تنشد وهي سابحة في سماء النعيم :

— لقد جعلت الحلم جميلا —



على الطريق

لماذا وقفت بخوف وحيرة
آيا نفس ، عند الطريق العسيرة ؟
الا أمشى ، فان الحياة قصيرة ،
الا أمشى !

مقر الاله بعيد ، فسيرى
لكي تدركي الله قبل النشور
فجدي ولا تسألي عن مصيري
بعيشي .

علام التفاتك نحو الطلول ؟
أشافك تذكار ماض يحول
فلت إلى العود قبل الوصول
الا أمشى
كفاك من الماضيات الشباب
رياض أمان سقاها السراب

فقللى — « وداعا » لماذا العتاب ؟
لنمش !

لماذا العتاب على ما انقضى
أترجع بالعتب عمرًا مضى !
شقيننا ولكن شفانا الرضى
ألا امشى !

شقيننا بحمل صليب الزمان
ولكن غلبنا الشقا بالامانى
ومن ذى وذاك نظمنا الاغانى
الا أمشى

أنفسى ، بربك خلى السامة
وهي لنسبق تلك الغمامة
وصلى بدمع وبعض ابتسامة
فنمشى

ألا امشى ! وبعد الجهاد الحقيقى
سنسبق آمالنا فى الطريق

ونجني الاشعة قبل الشروق
ألا امشى

مناجاة

لاحت قصور الخيال تعلو متون الغمام
يا أخت روحى ، تعالى أطلت فيها المقام

*
* *

يا أخت روحى اسمعيني من أوج تلك السماء
قد كاد يقضى يقينى هلا أجبت النداء !
أراك لا تعرفينى - أزال عني البهاء !
أجل تغير كنهى مذجت أرض الشقاء
بدلت فيها جلالى بحلة من عظام
يا أخت روحى تعالى قد أصتجرتنى الانام

*
* *

أرنو بليل كئيب وطرف جسمى كليل

اصغى، ترى من مجيب أو من خيال جميل
يلوح رجع سناه فى طى غيم ثقیل
وكيف، والجو قفر يحار فيه الدليل؛
يا ويح هاذى الليالى أضحت لطرفى لثام
يا أخت روحى تعالى فالناس صرعى نيام
الناس- من هم؟ جسوم ضاعت بهن النفوس
ان يرقدوا فنعيم رقادهم فى البؤوس
واحسرتا! انا منهم مادام جسمى اللبوس
ناموا ونفسى يقظى تهذى بذكر الشموس
ترجو انتهاء اعتقالى لى تقض الخيام
يا أخت روحى، تعالى تلقى اليك الزمام

*
* *

كانت لها الشهب عرشا وكنتما فى اقتراب
فاهبطت فهى تخشى وتنزوى فى الحجاب
تظل غرثى وعطشى لقوتها والشراب
تقتات بالصوم حيناً وترتوى بالسراب

تعاف ثدى المحال ينز منه الاواء
ياأختروحي، تعالى قد حان عهد الفطام

*
* *

ياأختروحي الحزينه إلى متى ذا الصدود؟
أو أنت مثلى سجينه قد أثقلتك القيود؟
مرضت في الارض بأساً ولا صديق يعود؟
ياأختروحي، صبراً! فالملتقى في الخلود

*
* *

لاحت قصور الخيال كومضة في الظلام
أكلهن خوالى؟ ما من يرد السلام؟

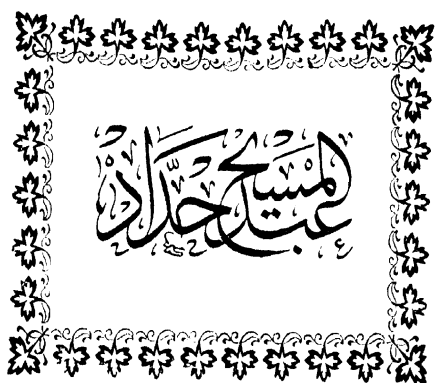
ياأخي ياأخي

ياأخي، ياأخي، المصاعب شتى
وبعيد مرادنا والموارد

وامام العيون درب عسير
لم تسر قبلنا عليها الاوابد

مظلم ، موحش ، كثير الافاعي
والسعالى المسهويات الطرائد
غير أن المسير لابد منه
ان أردنا ادراك بعض المواعد
فلنسر فى الظلام ، فى القفر ، فى الوحشة ، فى
الويل — فى طريق المجاهد
فلنسر أعزائى إلا من الحق
سلاحاً ، والفكر حاد وقائد
وإذا اشتدت الزئاب عواء
فلنقابل عواءها بالنشائد
وإذا حلو لك الظلام أضاءنا
مشعل القلب مثل نار المواعد
يا أخى ، يا رفيق عزى وضعفى
سر نكابد ، إن الشجاع المكابد !
فاذا ما — عييتُ تسند ضعفى
وأنا بعد ذا لضعفك ساند

سر ، تقدم لكي نخط طريقاً
لأبابة الهوان عند الشدائد
يا أخى ، يا أخى ، المصائب شتى
غير أنا فى سيرنا غير واحد
فلنسر ، فلنسر ، وإما هلكنا
قبل ادراكنا المنى والمواعد
فكفانا إنا ابتدأنا وإنا
إن عجزنا فقد بدأنا نشاهد



الله يسعدك و يبعده

لم يكن من يستطيع من يفهم أصل الخلاف بين
ابراهيم الصالح وأخيه فريد وقد بدأ الخلاف بينهما في أول
أسبوع وصل فيه الصغير الى هذه البلاد . وبعد أن كان
ابراهيم يستعد لاستئجار منزل خصوصي يشتري له أثاثاً
جَمِيلاً ليعيش مع أخيه فريد كعائلة صغيرة لبث في غرفته
المفروشة وطرد أخاه من عنده فاضطر المسكين وهودون
السابعة عشرة الى أن يستأجر غرفة له زرية جداً وأن يعمل
كأجير في محل تجارى ليعيش مستقلاً

حكى لى فريد الصغير عن خلافه مع أخيه فقال انه
لا يعلم لماذا كرهه أخوه ولم يأثم أمامه ولا أخل باعتباره
كأخيه الا كبر وولى نعمته ولكنه اسبب بسيط جداً
ارتأى ابراهيم أن يفترقا وأن يعيش كل منهما لنفسه ومذ
منعت اجتماعهما معاً إلا إذا كانا وحدهما وإذا كان يستعمل
ابراهيم سلطته على أخيه فيأمره أمراً وينفض طرف سترته

بأصابعه علامة أنه هكذا يريد أن يعمل وإذا أي فلا يكون
مسؤولاً

ان خلاف الاخوين على هذه الصورة أمر غريب
جداً فليس بينهما من خطأ ارتكبه أحدهما ضد الآخر
ولا بينهما مالا يحى على أن الاثنين ناجحان بأشغالهما
وابراهيم رجل يبلغ الخامسة والثلاثين وقد صار له نحو
عشرين سنة يعمل في أميركا ولما أنهى فريد المدرسة
الابتدائية استقدمه اليه على أمل أن يفتح محلاً تجارياً يكون
فيه رئيساً وأخوه مديراً الا ان الامور انتهت بالجفاء بين
الاثنين في أول أسبوع لوصول فريد الى أميركا .

أما فريد فشاب ذكي له المام بالعلوم وولع بالمطالعة .
قليل الكلام ولكنه رصين لا يتكلم الا اللازم الذي يفيد
عكس أخيه الا كبر فانه كثير الكلام كثير الدعوى
يتدخل في كل موضوع ويحشر نفسه في كل مشكل وقد
ولع أيضاً بالمطالعة الصحفية والكتبية وانما ولعاً سطحياً
فكان يحفظ أسماء أعظم الرجال من سياسيين وعلماء

وفلاسفة وشعراء فاذا تكلم في اجتماع يكثر من ذكره
تلك الاسماء فينظر الناس اليه كرجل عليم في صدره كنوز
علم وعرفان فاذا كان الحديث عن السياسة أسرع فذكر
بسمارك وغلادستون وقال فلان قال كذا وكذا ومن اطلع
على كتبه أو ما قاله بسمارك أو غلادستون ليكذبه ؟ واذا
كان الحديث عن الشعر ذكر في الحال المتنبي وأبا العلاء مع
بعض أبيات كليهما يقولها باللفظ المكسر ثم يعمق
بتاريخ الشعر فيذكر هو ميروس ويتدرخ بالاسماء الى
هيكو وموسيه وووو . . حتى يسكت الحاضرون ويعطوه
موقف الكلام ولا يعدم أن يرى منهم إعجاباً بسعة معارفه
ووفرة علومه حتى صار عندهم مرجعاً لكل أمر ومضرب
المثل في العلم بكل باب من أبوابه .

ودام هذا معه حتى وصل فريد الى نيويورك فصار
يحضر مع أخيه بعض الاجتماعات ويراه راكباً مركب
الشطط بأكثر أحاديثه فكان يسكت أولاً حياء منه وإلكنه
بعد أن استأنس صار يعترض على غلط أخيه ويصلحه فكان

ابراهيم يحرق الارم غيظاً ويلعن الساعة التي وصل فيها أخوه
لينزع عنه مقامه كعالم بين الناس

ومرة كان الاخوان في سهرة حافلة وكان الفونوغراف
يشنف أسماع الحاضرين والكؤوس دائرة عليهم وآخر
اسطوانة سمعوها فذهبوا بسحرها كانت اسطوانة للصلبان
ينشد فيها « يا ليل لصب . . . » فكان بعضهم يعيدها
ويعيدها ويساعده غناء بها واستشهاداً بمعاني أبياتها الجميلة
حتى وقف عند « رقد السمار وارقه » فقال في القوم « من
هذا السمار ؟ »

فأجاب أحدهم وقال : « أظن أن السمار هو الذي يدق
المسامير »

فضحك الكل من جوابه
وقال ثان : « أظن السمار هو الهر أى السنور لا بل
السنمار »

وقال ثالث : « لا بل هو السممر الذى يطارد الجراد »
واختلاف القوم على معنى الكلمة وابراهيم الصالح

يتنحى وقد غاب عن الحضور بفكره ليأتى لهم بمعنى الكلمة لهم فكان كلامه فصل الخطاب ، وأما أخوه الصغير فريد فكان الحال عنده كالتياترو فما كان يهدأ من الضحك بكل ما استطاع شذواه وبكل ما فى رئيته من القوة

وأخيراً صاح صائح وقال : « عندا ابراهيم الصالح ونتجاسر على تفسير الكلمة فلنسمعه الآن يحل لنا المشكل » وسكت الحاضرون ووقف الفونغراف وصاروا كلهم أذناً مستعدة للسمع وعيونهم مصوبة على نقطة واحدة هى وجه ابراهيم الصالح

عندئذ لم يعد لابراهيم من مهرب ، فعبار عليه أن لا يحل مشكلة صغيرة كهذه وهو لم يعودهم ذلك ففتح فيه أولاً ببطء كلى وعيناه محمقتان ووجهه يتناول وكان بطرف نظره يحدج أخاه فريداً لهذا تلثم قليلاً ولما تحنن الله على صبر القوم خرجت من فيه كلمة « أظن » خمس مرات وبين كل مرة وأخرى فرصة دقيقتين حتى أخيراً فاض بحل المشكل طارحاً عنه التردد المصنع وقال « ان السمار هو

السامري عزول اليهودى ويظهر أن قائل تلك الايات
يهودى فيكون المعنى أن العدو نام وهو لم ينم بل أرقه الالم
ويظهر ان فريداً فى تلك الساعة نسى ان أخاه الاكبر
كان المتكلم ولهذا استعان بكل ما فى قدرته على الضحك
حين كان الكل صامتين وعلى وجوههم سياء الرصانة
يتوقعون القول الفصل من رب العرفان عندهم وهذا مادعا
ابراهيم أن يستشيط غيظا من أخيه فشتمه ولولا حرمة
الناس لكان ضربه فانتبه فريد لا مره وعقب ضحكاته الطويلة
عبوسة فجائية فاستصفح أخاه وأقر بانه مخطيء وانه نسى
نفسه لتفاسير القوم كلمة « سمار » البعيدة الصواب
عندئذ قال له أخوه : « أنت » يافريد مثل كل ولد
يأتى من سوريا مملوء دعوى ولا تحترم معارف الآخرين
بل تظن ان ما تلقنته فى المدرسة هو كل العلم مع انه ينقصك
تهذيب كثير . والآن « يا عيب الشوم » دعوتنا نخجل أمام
الناس فقم بنا قم »
وقد ألح الحاضرون على ابراهيم ان يعدل عن فكره

بالرحيل وأن يهديء روعه قليلا وأن أخاه سيتعلم فيما بعد
فيحسن سلوكه ويعرف كيف يجالس الناس .

وكان أحد الحاضرين الذين فسروا الكلمة شديد
الاستياء من جواب فريد لأخيه بأن تفاسير القوم
أضحكته فخطبه بملء الاشمزاز قائلا : « وهل عندك
تفسير أحسن أى نعم نحن لم نتعلم فى المدارس مثلك ولكن
لا أظن ان كلامنا يوجب ضحك الناس الا اذا كان ضحكك
بلا سبب والضحك بلا سبب من قلة الادب . »

هنا تبدلت هيئة فريد الصغير فقال بصوت لطيف
والخيرة آخذة منه مأخذا « اعذرونى يا اخوان على ما بدر
منى فانا لم أقصد بضحكى الخط من كرامة الذين فسروا
كلمة « سمار » بل ان تفاسيرهم جعلتنى أضحك لاننا فى مجلس
سرور ويجوز فيه لاي كان أن يضحك . »

أما ابراهيم فظل واقفا يشد بذراع أخيه ليخرج من
تلك الجلسة لئلا يحدث ما يكدره أكثر . ولكن رجلا
متقدما فى السن أعجبه منطق فريد فنهض باسما وتقدم الى

ابراهيم سائلا اياه أن يعود الى مكانه لمحو أثر الخلاف خوفا
على خاطر الصغير القادم من البلاد فقد شعر بنفسه ان
فريداً انكسر خاطره فاضطر ابراهيم الى الجلوس وعاد
الرجل المتقدم في السن فقال لفريد : « يافريد لاترعل يا ابني
لا بأس عليك مسألة صغيرة . لا تستحي فكل الحاضرين
اخوان أى يا ابني اقعد وقل لنا الآن كيف تفسر سمار
لنضحك نحن عليك كما أنت ضحكت علينا . »

فضحك القوم سلفاً على فريد ماعدا ابراهيم الذى كان
السم يغلي في قلبه ولكنه لم يجسر ان يعترض ولما رأى
فريد ان الحاضرين سرى عنهم تبسم وقال :

« إن كلمة سمار جمع سمير والسمير هو الذى يسهر الليل
فيكون معنى الشاعر أن الساهرين ناموا إلا هو فقد حرمه
النوم ألم يعذبه »

فضحك ذلك المتقدم في السن ضحكة كبيرة وقال :
« أى والله الآن أخذنا ثأرنا منك » وضحك اضحكته

الحاضرون إلا ابراهيم الذى نهض فى الحال يريد الذهاب مع
أخيه بداعى أن السهرة طالت
تلك السهرة لم ينم فريد مع أخيه ومنذ تلك السهرة
لم يعد يضم الاخوين اجتماع وعند ما يسأل ابراهيم عن سلوك
أخيه يهز رأسه ويتنهد قائلاً : « ما أحد اشترى البلوى
لنفسه مثلى فقد كنت بلا هم فحُتت بأخى ايزيد سرورى
فكان أنه حرمنى الراحة ولكن أميركا واسعة فאלله يسعده
ويعده

فى بيت المليت

عندما مات طانيوس المر ظل بيت الفقيد مقصد
المعزين أسبوعاً كاملاً ليل نهار وقد خيف أن يكون بلاء
أهل الفقيد من كثرة المعزين أكثر من فقدهم المرحوم
ولكن هى العادة السورية فى هذه الأحوال تأخذ مأخذها
وهو التقاليد يجرى مجراه ولو تقطعت القلوب وتفتت

الا كباد ومحطم إناء الصبر . أهل الميت يسمعون تعازى
من أفواه المعزين كأنها أمثولات تعلمها قائلوها من جملة
الصلوات التي تقال كل يوم وإني أنا كاتب هذه الحكاية أشعر
بكل ما فى من العواطف مع الفاقدين ليس على من يفقد
بل على جلادتهم فى استماع فلسفة التعازى

الا أنه من نعم المولى ان الاصطلاح فى التعزية أن
يكون وقتها قصيراً جداً فالمعزى يبقى قبعته بيده وإذا كان
فى الشتاء يظل لابساً سترته العليا وما الداعى الى هذا
الاختصار ميل من القوم الى التخفيف عن أهل الميت بل
كثرة القادمين حتى يضيق عنهم المكان واذا ذاك يخرج
فوج ليعطي مكانا للفوج القادم جديداً .

أما أهل الميت فجلوس بلا حراك وأذان بلا السنة
وعيون تنظر أحضانها وشفاه تتمم كلمتين لكل قادم وكل
مودع وهما « ورأسك سالم » جوابا على التحية فى التعزية
لدى الدخول والخروج وهى « عوضنا الله بسلامة رؤوسكم »
والمرحوم طانيوس المركنت أعرفه معرفة خارجية فلم

أزره في بيته بحياته ولكن صديقي بطرس كرواني جذبني
جذباً لناخذ خاطر أهل الفقيد قائلاً لي ان التعزية واجبة
على كل عارف ولا فرق نسبياً كان أم صديقاً أم من المعارف .
وهكذا كان ، ذهبنا وكان حضرة صديقي أبرع مني
في الكلام فقد دخلت الى بيت الميت وانا كالجنين في عالم
التقاليد فقد هممت بالقاء التحية التي أقولها في كل الاوقات
الا أن صديقي بطرس رفع كفه ووضعها على فمي فجعلني أبلغ
« نهاركم سعيد » ثم همس باذني أن أقول « الله يعوضنا
بسلا متكم » فقلت وجلست كاني من أهل الميت على
ما وصفت وأزيدهم بعدم التمتمة لان المسألة لانهينى وبنظر
الاشباح من كل جهة لان حضنى كان مملوءاً بسترى المطوية
وفوقها قبعتى وقد احمر وجهى خجلاً لانى كنت الوحيد
النازع عنه سترته .

بعد سكوت خمس دقائق فتح بطرس فاه بالكلام فقال
« قبل أن مات اسكندر الكبير عرف أن آخرته
قد اقتربت وأن أمه ستحزن عليه حزناً عميقاً فدعاها اليه

قبل موته وقال لها وصيتي إليك يا أماء أن تأدبي مآدبة بعد موتى وتدعى إليها كل الناس وعندما يجلسون الى المائدة قولى لهم إن من لم يذق حزنًا على حبيب له فليمد يده ويأكل وهكذا كان. فبعد وفاته أدبت مآدبة ودعت إليها جميع الناس ولما جلسوا الى المائدة قالت لهم ما أوصاها ابنها اسكندر أن تقوله فلم يمد أحد يده للطعام ، فعرفت إذذاك أن كأس الموت دائرة على الجميع ولهذا تغزت في مصابها الجلل « سمعت هذه الموعظة فكبر قائلاً بعينى وقلت فى نفسى يا ضيعان ما تعلمته فى المدارس والله ان بطرس فاقنى بأسلوبه المعزى وقال أحسن موعظة تقال فى محلها ، وكأنى نسيت نفسى أنى موجود فى هيكل الصمت فقلت لرفيقي « أحسنت والله بهذه التعزية إنها لحكمة منزلة »

أما الحاضرون ولم يكونوا كثاراً لان زيارتنا لاهل الميت كانت بعد أسبوع وقد بدأت حركة التعزية تقل فقد سمعوا الموعظة الجميلة كأنهم لم يسمعوا شيئاً البتة وقد

عجبت لامرهم فقلت في نفسي لعلمهم طمطمانيون لم يفهموا
معنى الذى قيل أمامهم

ولم يكذب ينهى بطرس كلماته الدرية حتى وافى البيت
فوج مؤلف من ثلاثة رجال ولان المكان واسع والزوار
قليلون بقينا فى أما كننابل بقى بطرس جالسا واضطرت
أن لا أتحرك لانه هو الزنبرك لهذه الزيارة .

ولما جلس القادمون جديداً فتح أحدهم فاه بالكلام
وفىما هو بهم ليتكلم حزنت على نفسى وقلت يا الله ما اجهلنى
فانى لا أفهم شيئاً من العادات والتقاليد ولم أمرن نفسى
على الكلام اللازم فى كل حين — أما المتكلم فبدأ بقوله
هذا حال الدنيا . الموت محتم على كل الناس لا مهرب
منه . كان اسكندر الكبير قد فتح الدنيا بأسرها وهو فى
الثلاثين من عمره »

وفىما هو يخبرنا عن الاسكندر قلت فى نفسى .
موعظة ثانية تأتينا وقد حتمت على أن أقصد المكتبة
العمومية بعد هذه الزيارة لاطالع حياة ذلك الرجل العظيم

الذى كل تاريخه مواعظ لازمة للبشر فى حالات المصائب
وقد تحولت الى اصغاء تام لاسمع المتكلم فلا تفوتنى الموعظة
الثانية ولكن شد ما كان فشلى عند ما سمعت منه نفس
الموعظة التى أخبرها بطرس ولهذا استأنت فى داخلى أيما
استياء .

عندئذ هم رفيقي بالنهوض لانه رأى فوجا آخر مؤلفا
من قادمين اقتربا من الباب فكبست على ركبته وهمست
فى أذنه انى أريد أن أبقى حتى نخرج كلنا معاً فسايرنى بطرس
مضطراً ودخل القادمان فتليا افشين التعزية وجلسا . وما
هى الا لحظة حتى فتح كبيرهما فاه بالكلام فسمعتة يقول
« ما هان علينا موت المرحوم ولكن أمر الله لامرد
له هكذا قدر وكان فسبحان الدائم . يحكى ان اسكندر
ذا القرنين شعر بدنو أجله ... »

هنا تنحنحت قليلا فلاحت منى لفتة الى صديقى
بطرس فرأيتة يخطط وجهه ابتسامة ولكن فى الحال أدرت
وجهى عنه الى ناحية المتكلم لاسمع حكاية اسكندر

ذا القرنين وبعد سماعي جملتين من حديثه بدأ وجهي يخط
ابتسامة عريضة وللحال خوفا من أن تنتهي الابتسامة
بضحكة ونحن في هيكल الحزن والخشوع نهضت ونهض
معي رفيقي فقلت

«بالاذن بلا قطع حديث حضرة المتكلم ونهاركم
سعيد جميعاً» وخرجت وتبعني بطرس ولما صرنا خارج
البيت أمسكني صديقاً مستوقفاً وقال والسم يقطر
من وجهه :

« ما نفعك ونفع عامك اذا كنت لا تفهم ان في بيوت
أهل الموتى لا يقولون عبارة «نهاركم سعيد» وقد أفهمتك
عند ما دخلنا ان لا تلفظها فبلغتها فاما اذا نسيت هذا الامر
عند ما خرجت ؟

فقلت له دعني من عتبك يا بطرس واخبرني أين قرأت
القصة التي قلتها في بيت الميت فقال انه سمع جده يرويها
في مأتم شيخ القرية . فقلت وأين قرأها جذك . فقال لا بد
انه سمعها من جده . فقلت له اذا في مرة ثانية أضبط التاريخ

وقل هكذا : « حدثني جدى عن جده عن جده حتى اتصل
الى معاصر لاسكندر الكبير . »

فضحك بطرس وصفح عنى وقال وهو يصافحنى لياخذ
سبيلا غير سبيلى

« اضحك بسرك فانا لم نكمل الساعة فى بيت
المرحوم والا لكننا سمعنا حكاية اسكندر الكبير لا أقل
من عشرين مرة »

فأجبتة ولعلانى قلت الصواب . « لو كنت موضع
أهل الميت لقلت للناس المرحوم استراح من هذه الدنيا
ومن مواعظكم »

وودعت بطرس وسرت فى طريقى فالتقيت بجماعة
عرفت منهم واحداً ولما رآنى دنا منى مسلما وأخبرنى انه
ذاهب لياخذ بخاطر آل المر فأخبرته انى آت من تعزيتهم
الله يساعدهم . فاعاد « الله يساعدهم » وزاد « ويعينهم » وقد
أخبرته كيف انى دخلت بيت الميت ولم أقل عبارة تعزية
أعزى بها المساكين لانى لا أفهم الاصطلاحات فضحك

مى وقال « أهى مسألة فلسفة . احك قصة فيها مغزى
وعز بها الجماعة » فقلت وما عساك أن تحكى أنت ؟
فبدأ يخبرني قصة اسكندر ذى القرنين ولكنى
قاطعته قائلا انى أعرفها وأشرت له ان يلحق بأصحابه ليعزوا
الجماعة ويساعدهم الله — ويعينهم — ويرحمهم

رأس الحكمة

الطفل إذا خاف يفرغ الى أمه ، كذلك كل ضعيف إذا
شعر بخطر محقق به يفرغ الى قويه
والنفس كما للجسد مفزعة وإنما ما لا ترى كالنفس
وكل شئ صفته من جنسه ، فكما أن النفس لا ترى كذلك
مفزعها لا ترى
عندما تحقق بالمرء المخاطر تفرغ نفسه الى أمها الخفية
كما يفرغ الطفل الى أمه إذا خاف على مرأى منا
أما فرغ النفس الى أمها فيظهر للناس بالخشوع اذ

اشتعل عليهم الخوف من قوة لا قبل لهم على مقاومتها
جسدياً لم أكن منذ سنين لأثق بالخشوع والمتخشعين ،
وكثيراً ما أضحكني أبصارى أناساً جامدين أمام غير مرئي
تخشعوا له بعيون مغربة وأياد مكتفة وشفاه متممة ، إلا
أنى لم أعد أضحك منهم بعد حادثة عرضت لى فاكتشفت
سر غير المرئى الذى يقف الناس أمامه مصلين

كان ذلك فى البرية حيث انفردت بنفسى آمناً من الوحش
والانسان بل من الانس والجان وما أن اكتنفتنى وحشة
الخلوة حتى تلبدت السماء بالغيوم فاكفهر النهار وانقلب
ظلاماً وأخذت الرعود تقرقع بملايين ملايين طبولها وانبتق
من الفضاء العالى سهم من نار وصل أوله لارض لولبيا من
بعيد ولم يخرج ثمت نصفه من الشفق فشعرت بخوف لم
أكن لأشعر به لو أنى وجدت بين نابى جيش معاد وأنا
فى ساحة الحرب أعزل ، ثم أحسست بأن نفسى كذلك
قد خافت ففزعت الى أمها فى السموات ولم أدر إلا وأنا
متخشع أمام ما لا أرى منه الا الجبروت على ما ندعوه كوناً

فلما ذهب عني الخوف إذ هدأت الحال وجدته في تلك
البرية واقفاً أمام غير المرتى كواحد من الذين ضحكت من
وقوفهم جامدين مكتفين متمتمين متخشعين

ان المرء يدرك عن طريق نفسه سرّاً في المخاطر غريباً
في كيانه إذ تفزع نفسه الى أصلها العظيم الذي لا يرى
كذاتها كما تفزع صغار الافراخ الى أمهاتها بدافع غريزي
هو في الحيوان كما هو في الانسان : حيثئذ يخشع الصغير
للضعيف أمام العظيم القوى المنبثق منه والنفس شيء من
« ما لا حد له » فاذا ما نهتها المخاطر ودت الالتحاق بأصلها
العظيم فازعة ودليلاً على ذلك خشوعاً ابان الخطر

والنفس لا تكلمنا لفهم منها أصلها وفصلها ولا كنانا علم
أنها إذ تحتك بأسلاكها المرتبطة بهامع الالهوية ترتجف لقوة
ما لا ندركه مما لا يرى فنخشع مضطرين بقصد أم بغير
قصد خشوع الصغير اما الكبير

صعدت يوماً الى جسر بروكلن لاجتيازه مشياً على
قدمي فأرى والمس عظمة وصل اليها العقل البشري المخترع،

ولما صرت في منتصفه مددت بصرى الى نصفه أمامى
ثم التفت فمددت بصرى الى نصفه ورأى فأدهشنى بناء
عجيب فوق الماء ينقل شطر المدينة العظمى الى شطرها
الثانى ، ولكنى ما لبثت حتى شخضت الى العلاء فرأيت
من النجوم فى الفضاء ما لا عد له ، فحملتنى نفسى على جسر
يهيولى الى فوق حيث ديار أهلها ولما بان لى ذلك الجسر
الهائل قلت فى داخلى « عظيم جسر بروكلن يشيده العقل
البشرى ولكن ما هى نسبته لذلك الجسر الهائل الذى
يحمل ملايين ملايين ملايين الاجرام بين سيارات وثوابت
ويربطها ببعضها بقوة لا ندرك كنهها »

فسمعت إذذاك نفسى تهتف قائلة —

« تخشع أيها الانسان أمام ما لا تدركه العقول »

فقلت وقد جمدت وكثفت ساعدى وتخشعت

« الخشوع أيها النفس خوف فهل خلق الانسان

ليخاف ؟ فأجابت نفسى وقالت :

« بلى الخشوع من الخوف ، والخوف من الفكر ،

والفكر من النفس ، والنفس من اللانهاية التي كل ما تراه
أمامك وفوقك ووراءك وتحتك وما لا تراه بعض بعضها
فاذا احتكت النفس بأسلاك توصلها بأصولها نبهت الفكر
فتنفس الفكر بالخوف والخوف بعث الخشوع ، والخشوع
أمام القوة غير المحدودة همس الانسان الصغير في أذن
الفضاء العظيم عن أن المرء قد عرف ما هو في هذا العالم
ومن هو من هذا العالم ولهذا فهو يفرع الى ربه كما يفرع
الطفل الى أمه والضعيف الى قويه
إذذاك أدركت الحكمة بقول ذلك الحكيم القائل :
« رأس الحكمة مخافة الله »



مطبوعات جديدة تطلب من

مَكْتَبَةُ الْمَلِكِ

بِئَاعِ الْبُحْالَةِ بِمَرْ

١٢ ذكرى أبي العلاء تأليف الدكتور طه حسين

٧٥ النظرات في ثلاثة أجزاء للسيد مصطفى لطفى المنفلوطى

١٥ الاجنحة المتكسرة لجبران خليل جبران

١٥ الارواح المتمردة » » »

٠٨ عرائس المروج » » »

١٠ انشاء الرسائل لابراهيم زيدان

١٢ إنشاء الرسائل انجلىزى وعربى

١٠ الانشاء العربى لابراهيم عبد الخالق

٧٥ علم استحضار الارواح تعريب شكرى صادق

٧٥ » قراءة الافكار » » »

ص

٢٠ ألف يوم ويوم مزين بالصور

٢٥ ديوان حافظ في ثلاثة أجزاء

٦ فلسفة الحياة للكونت تولستوى

٤ السلطة والحرية » »

٤ كلمات الفلاسفة

١٢ الفخرى فى الآداب السلطانية

١٢ امين الريحاني — ناشر فلسفة الشرق فى بلاد الغرب

بقلم توفيق الرافعى

٥ قبل الزواج وبعده

١٠ الاسلوب المفيد عربى انكليزى

(المكتبة الهلال (قائمة) بأسماء الكتب وأثمانها ترسل لمن يطلبها)

مجاناً

آخری درج شدہ تاریخ پر یہ کتاب مستعار
لی گئی تھی مقررہ مدت سے زیادہ رکھنے کی
صورت میں ایک آنہ یومیہ دیرانہ لیا جائے گا۔

۱۔ اگر کین بر سر اعلیٰ خدایا
 جاحد کما حقہ
 ۲۔ اساتید صاحبِ علم
 اور کین و القوس
 ۳۔ جلیسِ انجمن
 ۴۔ علمائے دین
 ۵۔ علمائے دین
 ۶۔ علمائے دین
 ۷۔ علمائے دین
 ۸۔ علمائے دین
 ۹۔ علمائے دین
 ۱۰۔ علمائے دین

